مَملكة رُوستافِيلي
أوراق من رحلتي إلى القوقاز

مَملكة رُوستافِيلي

أوراق من رحلتي إلى القوقاز

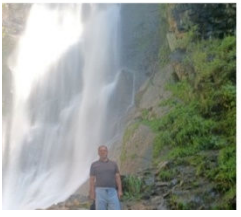

د. منير لطفي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾

[العنكبوت: ٢٠]

الإهداء

إلى الصديق العزيز..

م/عبد الهادي السيد

عربون محبّة ووفاء

استهلال (١)

إذا كانت حياتنا محكومة بالبحث عن السعادة، فقد تكون قليلة تلك النشاطات القادرة على كشف الكثير عن آليات هذا السعي بأكثر ممّا تكشف عنها أسفارنا.

[آلان دوبوتون/فن السفر/ص ٧]

استهلال (٢)

أُدرك أن السفر خارج الوطن ضروري، ليس فقط لأعرف البلاد الأخرى وأهلها، وإنما لأعرف مَن أنا ومَن نحن؟ فإنّ معرفة النفس لا تتحقّق إلاّ في ضوء معرفة الآخَرين.

[نوال السعداوي/رحلاتي في العالم/ص٤٦]

قبل الإقلاع

علىٰ خُطىٰ ابن بطّوطة وابن جبيْر وابن فَضلان قديما، وأنيس منصور وصالح جودت وعميد الرحّالين محمد بن ناصر العبودي حديثا ..

هذا كتابٌ في أدب الرحلات؛ نسافر فيه إلىٰ إحدىٰ بلاد القوقاز، علىٰ الحدود الأوروبية الآسيوية، فيها مكثْت تسعة أيام هربًا من أجواء الخليج الحارقة في مستهلّ شهر يوليو عام ٢٠٢٣، فنعمْت بالخضرة والماء والجوّ الحسَن، واكتسبْت معرفةً جديدة ببلدٍ ناءٍ أشبه بالنقطة علىٰ خريطة هذا العالم المترامي، إضافة إلىٰ معرفة أعمق بنفسي التي بين جنبي، وبوطني الذي يلفّني من حولي، وها أنذا أشارككم بعض ما رأيت، ليس علىٰ طريقة السرد المتسلسِل

لأحداث الرحلة يوما بيوم وساعة بساعة، ولكن علىٰ طريقة السينما في انتقاء مشاهد مبعثَرة واصطفاء مواقف فاصلة لنبني منها حكاية مكتمِلة في النهاية، ولعلّ فيها –إن شاء الله– الفائدتيْن: المتعة والمعرفة ..

فأدب الرحلات سيرة ذاتية ماتعة للأسفار، والأسفار سياحةٌ في أعماق الذات قبل أن تكون سياحةً في جغرافيا المكان، وبِئْسَتِ السياحة إن كانت ألبومًا لجمْع الصور، ونِعِمّا هي إن كانت وسيلةً لسعة الصدر وعلاجًا لقصر النظر..

ثمّ إنّ الصورة قد تنقل لك بعض جمال الطبيعة، لكن الجمال الحقيقي بشحمه ولحمه يظلّ حكرا علىٰ مَن يَزورها ويَمثُل بين يديها، بحسبان الصورة تكتفي منّا بحاسة البصر، بينما الحضور يتطلّب عمل كلّ الحواس وأوّلها السمع والبصر والفؤاد.

وكما نتعلّم من آبائنا في البيت، ومن أساتذتنا في المدارس والجامعات، ومن كُتبنا في المكتبات، ومن شيوخنا في المساجد، ومن تجاربنا في طول الحياة وعرضها؛ فدعونا هذه المرّة

نفسح المجال لمعلِّم جديد وجميل هو الرحلة والسَّفر..فأهلًا بكم في جورجيا.

د. منير لطفي

كُتب في سلطنة عمان/٢٠٢٣

أرطغرل مرّ من هنا

قلعة الرباط-أخالِتسيخي

من مدينة باكُورْياني المرتفعة عن سطح البحر ١٧٠٠م والبعيدة عن العاصمة تِبليسي بنحو ١٨٠كم شمالا، وتحديدا من فندق كريستال الفاخر ذي الخمس نجوم الذي أمنحه من عندي نجمة سادسة لأنه وفّر شطّافات في الحمّامات حتىٰ لَتشعر أنك في بيتك لم تغادره وفي ديار المسلمين لم تبرحْها، وفي العاشرة والنصف صباحا بتوقيت جورجيا الذي يتوافق بالدقيقة والثانية مع توقيت سلطنة عمان، تلونا دعاء السفر من علىٰ متْن سيارة العزيز كِيلا: "سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين وإنّا إلىٰ ربّنا لمنقلبون، اللهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوىٰ ومن العمل ما ترضىٰ، اللهمّ هوّن علينا سفرنا هذا واطْوِ عنّا بُعده، اللهمّ أنت الخليفة في الأهل والرفيق في السفر، اللهمّ إنّا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلَب في المال والأهل والولد"..

الجوّ بارد كالآيس كريم، درجة الحرارة ١٥، ورذاذ خفيف كالهمْس يتساقط، مع شمس خَجْلىٰ كعذراء، هذا في الوقت الذي

تزيد فيه درجة الحرارة عن الأربعين في الخليج وأقلّ منها قليلا في مصر..

وسبحان من خلق الحَرّ ليُنضِج تمور الخليج، والقَرّ ليُنبِت شاي جورجيا، ولا يظلم ربُّك أحدا.

انطلقْنا ننهب طريقا مرصوفا بمواصفات جيّدة، حارة للذهاب وحارة للإياب بينهما خطّ كالبرزخ لا تبغيان، ولكنه متعرّج كالثعبان صعودًا وهبوطا ويمينًا ويسارا، وعلىٰ جانبيه تشير لوحات السرعة المسموح بها إلىٰ ٥٠كم وبحدّ أقصىٰ ٩٠كم/ ساعة، وطبعا كاميرات مراقبة السرعة بالمرصاد ولكنها ليست كالثعالب ماكرة متخفّية تفاجئك لاحقا بمخالفات لا تدري أين ومتىٰ وكيف ارتكبْتَها؟!

نهر ميتكْفاري أو كُورا يلاحقك بمياهه المتدفّقة كصديق حميم يأبىٰ أن يفارقك، وجبال القوقاز في عباءتها الخضراء كشيخ صوفي شاذليّ تحوطك بذراعيْها، بينما أشجار الغابات عن اليمين واليسار تُؤنسك وبعين الله كالمآذن تحرسك، ومن بينها تعرّفْت علىٰ أشجار الصنوبر والبلّوط أو السنديان، مع بعض أشجار البندق المثمِرة.

علىٰ يمين أحد الطرق التي مررْنا بها كعابري سبيل، لمحْت يافطة كُتب عليها بالجورجية والإنجليزية، طريق الخمور (wine route)، ربّما لأنه يؤدّي إلىٰ (كاخيتي) المدينة الأولىٰ في إنتاج النبيذ الجورجي، علىٰ العكس من مدينة (بُرجومي) في الجنوب المتربِّعة علىٰ عرش إنتاج وتصدير المياه المعدنية المتدفّقة وسط الجبال كالصنابير وأحيانا كالنوافير والشلّالات..

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾[1].

وطريق الخمور هذا ذكّرني بطريق الحرير الذي تحييه الصين الآن مجدّدا لينهض بتجارة العالَم من جديد، ومن أجل ذلك رأيت الصينيين في جورجيا كقوم يأجوج ومأجوج يشقّون الجبال تحت الأمطار المنهمرة في عمل شاق وجبّار كتِنِّين يناطح الصخر.

بعد ساعة ونصف قطعْنا فيها مسافة ٧٠كم، وصلْنا بحمد الله إلىٰ وجهتنا، قلعة الرباط أو قلعة أَخَالِتسيخِي كما يحبّ الجورجيون تسميتها، ولا يلعبنّ برأسك سؤالٌ عن طول الوقت المستغرَق للوصول فتظنّ السوء بالسيارة أو تتهم السائق في حرفيّته؟ فطبيعة

(١) الزّمَر ٢١.

الطريق لها الكلمة العليا كمحكمة دستوريّة، ولمزيد من الإيضاح: السيارة فورد أمريكية، موديل ٢٠١٧، بمحرّك سعته ٢٠٠٠سي سي، ورقمها ٧٧٧، وهو كما ترىٰ رقم متميّز أُخبرْت أنّ ثمنه نحو ٥٠٠ لاري، أي نحو ٢٠٠ دولار أمريكي، وتقول الأسطورة إنّ هذا الرقم هو رمز الحدْس والحكمة الداخلية ويتعلّق بالتعبير الإبداعي والإيجابية والتواصل واللطف. أمّا السيد كيلا فسائق محترف متخصّص في العمل مع شركات السياحة لسنوات طوال.

مدينة أَخالِتسيخي -ولاحظ علوّ شأن حرف الخاء واحتلاله مساحة كبيرة في اللغة الجورجية- بقلعتها أقلّ ارتفاعا عن سطح البحر من مدينة بوكارياني وفندقها، وبالتالي كانت الشمس الحنونة متيقّظة، وبفضلها اقتربَت درجة الحرارة من العشرينات، ولكن المدينتين تتشاركان المنظر الأخضر الخلّاب للعين، والهواء النقيّ الأمثل للسياحة العلاجية.

القلعة ذات هيبة وجلال يُذكّرك بالإمبراطوريات العتيقة ويُعيدك إلىٰ أحضان التاريخ العميق؛ مَبنية علىٰ تلّة مرتفعة يبهرك منظرها من بعيد، وتفترش مساحة ضخمة تُقدَّر بنحو ٧٠٠٠٠متر مربّع، ويخسر

كثيرا مَن يفوّت زيارتها متعلِّلا بوعورة الطريق وبُعد المسافة، وهو ما كاد يُوقعنا فيه السائق ويصرفنا عن زيارتها رغم وجودها في برنامج الزيارة المُعَدّ سلفا، وإن كان قد نجح بالفعل في ثنْي عزيمتنا عن زيارة كهوف فارديزيا المنحوتة في عمق الجبال وذات التاريخ الممتدّ إلىٰ القرن الثاني عشر الميلادي، رغم وجودها أيضا ضمن البرنامج، وتستطيع أن تستنتج أنه ربّما رغب في توفير البنزين، وسعىٰ إلىٰ صيانة السيارة وسائقها من كدّ الطريق ووعثاء السفر.

علىٰ يمين مدخل القلعة، صادفنا مركز معلومات تحصّلْت منه علىٰ تذكرة دخول ثمنها ١٨ لاري للكبار وبتخفيض ٣٥٪ تقريبا للأطفال، ومنها أيضا تحصّلْت علىٰ مطويّة باللغة الإنجليزية وخريطة للقلعة لم يكن لهما كثير فائدة، ولا شيء بالمجان طبعا! فالخريطة ٢ لاري وكذلك المطويّة..

واللاري، هو العملة الجورجية، ينقسم إلىٰ مائة تَتَري، ومنه المعدني فئة الواحد لاري والاثنين، والباقي ورقي، فئة خمسة وعشرة وعشرين وخمسين ومائة، والدولار الأمريكي يساوي ٢.٦ لاري..

والجيّد جدّا، أن تغيير الدولار إلىٰ لاري يجري في العلن وبسهولة تامّة عبر محلّات للصرافة منتشرة في كل شارع، ولا تزيد تلك المحلّات عن نافذة بحاجز زجاجي، تعلوها لوحة مضاءة بأسعار الصرف اليومي، وما عليك سوىٰ وضع الدولارات أمام امرأة تجلس خلف الحاجز، ثم استلام ما يوازيها بالعملة الجورجية، دون سلام أو كلام، وبلا ضجّة ولا جلَبة! لا سوق سوداء ولا بيضاء للعملة، ولا لزوم يا صديقي لجواز السفر[1]، ولا حاجة لتحرير إيصال استلام والتوقيع عليه ظَهرا وبطْنا، ولا أثر لاستمارة تعترف فيها بمصدر المال وتكشف عن وجه الإنفاق؟!

وهذا التسهيل والتبسيط في الإجراءات، أراه مبدأً مهمًّا في خلق بيئة عمل مواتية للاستثمار السياحي الذي أنعش الاقتصاد الجورجي وضاعف من دخل الفرد خلال عشر سنوات.. وليت قوْمي علىٰ البُعد يعلمون!

(١) طُلب منّي مرّة واحدة ولم يكن معي، وقام السائق مشكورا مأجورا بإنجاز المهمة.

على يسار المدخل، خدعة لطيفة للتصوير تجذب بعض وربّما كلّ الزوّار؛ مجسَّم خشبي لامرأة ومجسَّم آخر مجاور لرجل، كلاهما في الزيّ الجورجي التقليدي القديم السابغ في طوله والزاهي في ألوانه والفضفاض في عرضه، ولكن مكان الرأس دائرة مُفرَغة تكفي لوضع الزائر أو الزائرة رأسَه فيها قبل أن تُلتقط له صورة بديعة تجسّد حيل برنامج الفوتوشوب الشهير.

في المستوى العلوي للقلعة، أجزاء رئيسية أربعة: مسجد، وكنيسة أرثوذكسية، ومتحف، وقصر لأسرة جاكيلي الحاكمة، إضافة إلى أبراج للمراقبة والحماية موزَّعة في أطراف القلعة الأربعة يتطلّب الصعود إليها قوّة وجلَد طالوت، ومنها يمكنك الإطلال على مدينة أخالتسخي كجنرال يعاين من عَلٍ جنوده، أو ومَلِك يشرف من شرفته على رعيّته.

داخل المسجد المصمَّم علىٰ الطراز العثماني، والمجرّد من كلّ شيء داخله، ربّما لإتاحة المجال لحرية التجوّل فيه بالأحذية، وجدتُ مرشدة تطوف بمجموعة سياحية فالتحقْت بهم سريعا، وكلّي شغف لمعرفة تاريخ هذا المسجد العتيق، ولكن خاب أملي حين سمعتُها تتحدّث إليهم بالجورجية التي لا أجيد منها سوىٰ كلمة (مادْلوبا)، أي شكرا.

أمام المسجد حوض واسع مستطيل مليء بالماء المتجدّد، لا بد أنه كان معدًّا للوضوء، وهو يشبه الحوض الموجود أمام ضريح ومسجد تاج محلّ الشهير في الهند.

وعلىٰ مقربة من الحوض، نافورة رائعة التصميم، وزهور متنوّعة عرفْت منها الخُزامَىٰ أو اللافندر بلونها البنفسجي اللافت، مع أشجار زينة مهذَّبة بيد بستاني ماهر يصلح للعمل في صالونات التجميل ومراسم الفنّانين.

أمّا الكنيسة فمتواضعة في الحجم مقارنة بالمسجد، وما إن دخلتُها حتىٰ بادرتْني سيدة مَليحة خلف مكتب، لتبيعني إكسسوارات قالت إنها أصلية، لم أشأ كسر خاطرها فسألتُها عن سعر سوار؟ ثمّ

انصرفْت عنها قبل أن تجيب؛ إذ خيّبَت ظنّي فيها حين اعتقدتُها ستجود علينا بشرح تاريخ ومحتويات الكنيسة، خاصة أنّ لغتها الإنجليزية جيّدة علىٰ غير عادة الجورجيات الفاتنات.

وقد تكلّم العارفون بجمال ن النّسوة، فوضعوا نساءَ القوقاز في الصدارة، وخصّوا منهنّ الجورجيات ذوات البشرة الوردية والقوام المتناسِق، وفي مدح حسنهنّ ومَلاحتهنّ قال الشاعر السعودي بن جعيثن:

"كـلُّ زيـن الحُـور فيهـا والكُـروج
الجمـال اليوسـفيّ فـيهنّ وسـيقُ"

ووسيق، أي موجود ومجموع فيهنّ. أمّا الكروج فجمع كُرجيّة، والكُرجيّة منسوبة إلىٰ بلاد الكُرْج وهي جورجيا كما كانت العربُ تسمّيها قديما.

وكانت الجارية الجورجية زمن الرقيق هي المَحظيّة عند مالكها، يتسرَّىٰ بها لتُنجب وتتحرّر ولا يفرّط فيها ببيْع ولو بلغ مال قارون، كما كانت الجواري الجورجيات بالإضافة إلىٰ الشركسيات هدايا ثمينة تروح وتجيء بين الحكّام والأمراء..

وفي العموم، يبقىٰ الجمال من النسبية بمكان بحيث تتفاوت فيه الأذواق تفاوتها في الثياب والطعام والألوان، ولولا اختلاف الأذواق لبارت النساء، قياسا علىٰ قول ابن خلدون في المقدّمة: "لولا اختلاف الأذواق لكسدت السِّلَع".

وبالعودة إلىٰ قلعة الرباط، كان من الجيّد وجود حمّامات بجوار الكنيسة، مهيَّئة بأحواض وصابون سائل لغسيل الأيدي مع مناشف ورقية، ولكن كالعادة، لا ماء داخل المرحاض، وهكذا حلْو الدنيا، دائما لا يكتمل، عموما انتهزتُها فرصة للوضوء وأداء الفريضة، ولكن ما إن وقفْت علىٰ مسطّح أخضر يفصل بين أجزاء القلعة ناويًا صلاتَي الظهر والعصر قصْرا وجمعا، حتىٰ انبرىٰ رجل أمن من أعلىٰ ملوِّحا بيديه: ممنوع، ممنوع! ففهمْت أنهم كالجواسيس يرصدون جميع أرجاء القلعة بعين صقر من خلف شاشات وكاميرات تسكن غرفة مراقَبة مغلَقة.

المتحف التاريخي للأسف كان مغلَقا، ومعه خمّنْت أنّ الاثنيْن يوم الإغلاق العام للمتاحف، وهو التخمين الذي تحوّل لاحقا إلىٰ يقين؛ فعقب انتهائنا من زيارة القلعة، عرجنا علىٰ متحف برجومي فوجدْنا أبوابه الخشبية العتيقة موصَدة، وكذلك قصر رومانوف الذي

قِيل لنا إنه تحت الصيانة، وهو قصر منيف يبعد عن حديقة بورجومي المركزية بنحو أربعة كيلومترات، أمر القيصر الروسي نيقولا الثاني ببنائه عام 1892م ليكون مقرًّا ملكيًّا للكولونيل رومانوف، وعليه وفَد ستالين وخلّف فيه ذكريات ومقتنيات، ولهذا تفنّنوا في جعله منتجَعا سياحيا فخما يغري أثرياء السيّاح بسكْناه.

أمّا قصر قلعة الرباط، فيقع في ركنها العلوي الجنوبي الغربي، وبه مقتنيات شخصية عديدة وأثرية، ميّزْت منها سريرًا خشبيًّا معلَّقا لطفل، وأريكةً عليها سجّادة صُنعت يدويا بإحكام يقاوم الزمن، وقِدرًا للطبخ يكفي عشرة علىٰ الأقلّ، مع آلات لغزل الصوف، وصندوق لحفظ للملابس.

وعند الهبوط إلىٰ الجزء السفلي للقلعة، يتراءىٰ لك مطعم وفندق، ومقاهي ومَتاجر لبيع الهدايا التذكارية، وهي ملحَقات لا غنىٰ عنها للسياحة الواعية.

وحسب المصادر التاريخية؛ يعود بناء القلعة إلىٰ القرن التاسع الميلادي في عهد الأمير غورام مامبالي من سلالة باغراتيوني التي حكمت جورجيا في القرون الوسطىٰ، وفي نهاية القرن الرابع عشر

اجتاح تيمورلنك أخالتسيخي، وأحدث بالمدينة والقلعة دمارا كعادة الهمج من الغزاة الذين لا يميّزون بين التراث والتراب ولا بين البشر والحجر، وفي نهاية القرن السادس عشر وتحديدا في ١٥٩٠م، سيطر العثمانيون علىٰ المدينة، وأعادوا بناء القلعة بالكامل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لتبقىٰ شاهدة علىٰ الإمضاء العثماني في صفحة التاريخ الجورجي.

وهذه القلعة، وإن أشارت إلىٰ الوجود العثماني القديم، فإنّ هنالك شواهد علىٰ القوّة الناعمة لوجود تركي فاعل في المشهد الجورجي المعاصر؛ ففي متحف الشمع بالعاصمة تبليسي يقف العظيم أردوجان ووراءه أوباما وجو بايدن وكيم يونغ، والعربي الوحيد بينهم هو الرئيس العراقي صدام حسين..

وعلىٰ الطريق إلىٰ مدينة (باتومي)، رأيت باصات شركة (مترو) التركية تنقل الركّاب من تبليسي إلىٰ باتومي. ناهيك عن المطاعم التركية التي يجد العربُ فيها ملاذا آمنًا لطعامهم، خشية الوقوع في المحظور بتناول ما يَحرُم من اللحوم أو غيرها من المحرَّمات.

وكما أن هناك أعدادا من أصحاب العِرق الجورجي يعيشون في تركيا، فإن هناك الكثير من الأتراك يعيشون في جورجيا، وكما

لجورجيا سفارة في العاصمة أنقرة وقنصليتين في طرابزون واسطنبول، فإن لتركيا سفارة في العاصمة تبليسي وقنصلية في مدينة باتومي.

مسجد القِبلتيْن!

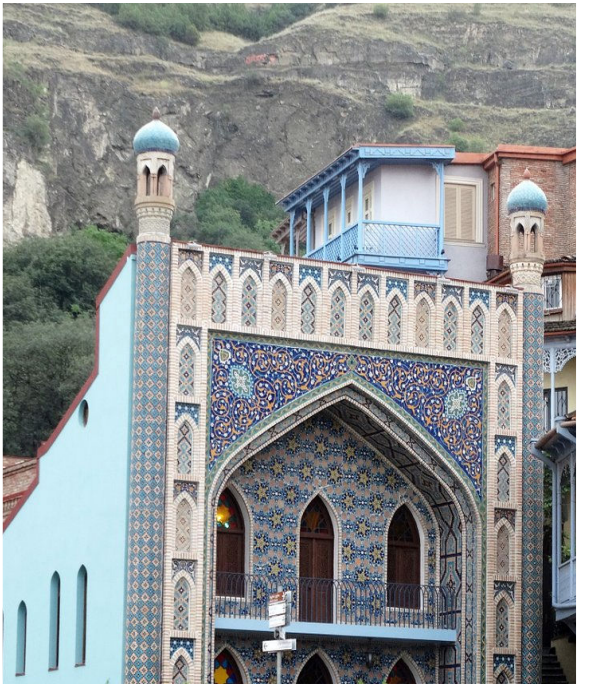

مسجد تبليسي-المدينة القديمة

شكرًا كِيلا، ففي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلّم قال: "مَن لا يشكر الناس لا يشكر الله"..

وكيلا هو سائقنا الجورجي المكتمِل البنيان كالمصارعين، والشكر له مستحَقّ؛ لأنه عقب خروجنا من مطعم إزمير التركي في مدينة باتومي أو لؤلؤة جورجيا علىٰ البحر الأسود كما يلقّبونها، سألني:

مستر منير، هنا مسجد قريب، هل تريده؟ وتلك سماحة تُحسب له وهو المسيحي الأرثوزوكسي الذي يتمْتم ويمسح بيمناه علىٰ صليب يتدلّىٰ من سقف سيارته مع كلّ محطة نصلها بعد سفر. علىٰ الفور رددْت: نعم، فلخمسة أيام مضت أصلّي في الفندق وأقاسي الأَمَرَّيْن لتحديد القبلة، تارة باستعمال البوصلة الإلكترونية، وتارة باستعادة ما علّمني إيّاه جدّي محمّد عليه رحمة الله فوق ساقية تروي أرضا لنا بعيدة لا زلت أذكر تفاصيلها، بأن أضع الشمس في ظهري وأصلّي، وتلك طريقة تقريبية ما أَيْسرها.

وما هي إلّا بضع خطوات وسط شارع حيوي يضجّ بالمحلّات والمطاعم والمقاهي والسيّاح والسكّان المحلّيين، حتىٰ لاحت من بعيد قُبّته الصفراء كالذهب الخالص ومئْذنته البيضاء في لون الحليب الصافي، قبل أن ننعطف إليه من بوّابة رئيسية، علىٰ يمينها تصطفّ أماكن الوضوء والحمّامات للجنسيْن، وبالطبع هناك مياه بالحمّامات، صحيح أنه سَطْل، لكنه نعمة كبيرة في جورجيا.

أمّا علىٰ يسار المدخل فتجد المسجد علىٰ نمط العمارة العثمانية المتأخّرة، أرضه مفروشة بسجّاد وثير وأنيق، وجدرانه وسقفه وقُبّته مزيَّنة بنقوش زاهية تتخلّلها أسماء الله الحسنىٰ وآياتٌ قرآنية، بينما يتوسّطه منبر خشبي كبير علىٰ يمين المحراب هو منبر الجمعة، وبجواره عباءتان وعمامتان لأئمّة المسجد لا بدّ من ارتدائهما عند إمامة المصلّين، وفي الركن الأيسر لمحْت منبرا آخَر، أصغر في الحجم ومختلفا في الشكل، يُصعد إليه بسلّم قصير،

ويُستعمل في غير خطب الجمعة. مسجد النساء ليس مبنىً قائما بذاته، ولكنه مساحة طولية مقتضَبة من المسجد، يفصلها عن مسجد الرجال بضعة أعمدة وستائر فيما بينها، مع مدخل خارجي لهذا الجزء المقتضَب.

أسعدَنا القدر بأن حان موعد أذان المغرب في الساعة ٨:٥٦، أي متأخِّرا لأكثر من ساعة ونصف عن سلطنة عمان حيث أعمل وأقيم، فصلّيناه جماعة مع إمامٍ لامسَت تلاوتُه المتأنّية الخاشعة قلبي وأثلجت ببرد معانيها صدري!

جورجي الأصل، درس العربية والشريعة في سورية، ومن فرْط إتقانه حسبْته عربيًّا شاميّا، اسمه بادري، وكنيته أبو القاسم.

وبعد ختام الصلاة جهْرا علىٰ عادة الأتراك، سألْته:

هل يستقبل المسجد مسلمين جورجيين جدد؟

قال: نعم، ولكن ليسوا أفواجا.

ثم زادني علما ببناء المسجد قبل نحو ١٥٠ عاما، وتحديدا في عام ١٨٨٦ من قبل عائلة أصلان بيغ الجورجي المسلم، وهو المسجد الوحيد بالمدينة علىٰ اتساعها، بعدما هدمت روسيا الشيوعية

مسجدين كانا بصحبته. وقبل الخروج صلّيتُ العشاء جمع تقديم وقصر، حيث تحين العشاء في الحادية عشرة والنصف! ولو علمْتَ أنّ الفجر يحين في الثالثة وبضع دقائق، فستدرك مدىٰ قصر الليل وطول النهار، وبالتالي صعوبة الصيام هنا، أعانهم الله.

أمّا المسجد اليتيم في العاصمة تبليسي والمُسَمّىٰ مسجد الجمعة، فيقع علىٰ هضبة مرتفعة تصعدها عبر شارع ضيّق أشبه بالزقاق لا يتسع سوىٰ للمشاة كعادة شوارع تبليسي القديمة، ويلفت نظرك بطرازه المعماري الفارسي وقبّتين صغيرتين تتكّئان علىٰ مئذنتين قصيرتين أعلىٰ ركنيْه الأماميّيْن، مع واجهة مزخرَفة ومنقوشة يرسمها بلاط كالفسيفساء ألوانه زاهية ومبهِجة. للحمّامات والوضوء مدخل منفصل، وعلىٰ المصلِّي الخروج منها إلىٰ الشارع ثم الدخول إلىٰ المسجد العجيب؛ ومَبعث العجب أن به محرابيْن يذكّرك بمسجد القبلتيْن[1] في قباء، ومشطور طوليا بواسطة مجموعة من الأعمدة إلىٰ

(١) يقع مسجد القبلتين في الجهة الغربية من المدينة المنوّرة في منطقة بني سلمة، وإليه يهرع الحجّاج والمعتمرون بالزيارة، لكونه مهبط الوحي بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرَّفة .

قسم أيمن للشيعة وقسم أيسر للسنّة، وبين الأعمدة فراغات كبيرة تمكّنك من التجوّل بين القسمين بسهولة، ومن السهل تمييز القسم الشيعي بعبارة: (أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابها) المنقوشة علىٰ جداره.

وحدَّثَني إمامهم الجورجي ذو الأصول الأذربيجانية، بأنه درس في تركيا ويحفظ بعض أجزاء القرآن؛ وعندما سألتُه:

هل تعرف الشيخ الشعراوي والغزالي والقرضاوي؟

أَبان عن معرفته بالشعراوي، وذهب ظنُّه في الغزالي إلىٰ حجّة الإسلام وصاحب الإحياء، أمّا القرضاوي فقد ذكر ما يفيد معرفته الجيّدة به ولكنه هدم كلّ تلك المعرفة حين ذكر بأنّ أصله جورجي! ولا أدري ما علاقة قرية صفط تراب مركز المحلّة الكبرىٰ بمحافظة الغربية في مصر بجورجيا التي ربما لم يزرها الشيخ القرضاوي مطلَقا.

وعن المسجد ذكَر –جزاه الله خيرا– أن عمره ٢٢٠ عاما، وعلّل اقتسامه علىٰ هذا النحو الغريب والعجيب، بأنّ الشيوعية الروسية هدمت مسجدا للسنّة وآخَر للشيعة، ولم ينج سوىٰ هذا المسجد الذي تشاركوه علىٰ النحو التالي: في صلاة الجمعة يصلّون معا

بخطبة وإمام واحد، ونظرا لعدم اتساعه فإنه يزدحم عن آخره يوم الجمعة ومَن لا يبكّر بالذّهاب سيصلّي في الشارع ولا ريب. ولكن في بقية الصلوات تصلّي كل طائفة علىٰ حِدَة دون تَعارُض؛ لأنّ الشيعة يتقدّمون في صلاتهم بضع دقائق، بالإضافة إلىٰ أنّ عدد المصلّين منهم قليل، اثنان أو ثلاثة، هذا لا يعني أنّ العدد في مسجد السنّة كبير، بل هو في حدود العشرة أثناء الصلوات الجماعية الأربع، نعم أربعة، لأنّ الفجر لا يُقام جماعة، وتلك عجيبة ثانية تضاف إلىٰ عجيبة القبلتيْن التي ما أنزل الله بها من سلطان ولا حكمَت بها سنّة أو شريعة..

والعجيب أيضا أنّ علىٰ جدار القسم السُّنّي نُقش بخطّ بديع الآية القرآنية: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾[1].

ويبدو أنّ المسجد في حاجة لدعم مادي متصل؛ إذ يوجد علىٰ بابه صندوق ضخم يحثّ المصلين علىٰ التبرّع، مع إمكانية تسليم التبرّعات مباشرة إلىٰ الإمام.

وهنا أهمس إلىٰ الآلاف المؤلّفة من السياح المسلمين الذين يزورون سنويا بلادًا مسلموها أقليّة ومساجدها في غربة: بودّي لو

(١) آل عمران ١٠٣.

بـدّدتُم غربـة تلـك المـساجد بإدراجهـا في برنـامجكم ولـو كمَـزار سياحي، مع دعمها بالمال كما تدعمون عروض الدلافين والتنزّه بالقوارب والفنادق ذات خمس نجوم، وما ضاع مالٌ مِن صدقة.

ونظرا لصعوبة تحديد القبلة داخل الفنادق المنتشرة كالجراد في المـدينتيْن تبليـسي وبـاتومي، كمـاريوت، وشـيراتون، ورادِيـسون، وغيرهم؛ فقد اقترحْت عليه وعلىٰ إمام مسجد باتومي التواصل مع الفنادق لوضع سهم يدلّ علىٰ القبلة بالغرف، خاصة أنّ السياحة العربية إلىٰ جورجيا كماء نهر كُورا لا تتوقّف عن الجريان صيفا.

وتعمـل المـساجد في جورجيـا تحـت إشـراف دائـرة للمـسلمين تأسَّسَت منتصف عـام ٢٠١١ م، وقبلـه كانـت تحـت إشـراف دائـرة مسلمي القوقـاز في العاصـمة الآذريـة بـاكو. وبـين المـسلمين العـشرة بالمائة من مجمل سكّان جورجيا حسب الإحـصاءات الرسـمية (أي نحو نصف مليون)[1]، والخليط من أصـول تركيـة وآذريـة وجورجيـة وتَتَريّة، تتركّز الأغلبية في منطقة أدجارا وعاصمتها باتومي الواقعة في الغـرب الجـورجي والقريبـة مـن تركيـا، وخاصـة في مناطقهـا الريفيّـة

(١) تُشكّك الجمعيات الأهلية والمؤسّسات الإسلامية في هذه النسبة، وترفعها إلى ١٥ %

الجبلية، حيث تبلغ نسبة المسلمين بتلك المنطقة نحو ٦٠٪ من سكانها.

وطوال رحلتي في جورجيا التي استمرّت مائتين وستّ عشرة ساعة، لم أر سوىٰ هذين المسجديْن مع مسجد ثالث لمحتُه علىٰ جانب الطريق أثناء عودتي من باتومي إلىٰ تبليسي.

وكم حمدت الله في رحلتي علىٰ نعمة العيش في بلد مسلم؛ فسماع الأذان وارتياد المسجد ومخالطة الصالحين، ترقّق القلب وتعين علىٰ الخير وتعصم من الغفلة، وزدْت في الحمْد عندما افتقدني إمام[1] مسجدنا في سلطنة عمان، وراسلني سائلا:

ما أشوفكم في المسجد، هل أنت بخير؟ ضاربًا بذلك المثل في كوْن الإمام للمصلّين كعائلهم، يتفقّدهم إذا غابوا، ويزورهم إذا مرضوا، ويواسيهم إن حزنوا، ويهنّئهم إن فرحوا.

والواقع، لا توجد عنصرية بغيضة تجاه المسلمين الجورجيين سواء من قِبَل الدولة كتلك التي نشهدها في بعض البلدان مثل الهند

(١) هو الشيخ الباكستاني محمد ساجد، الحافظ المتقن النديّ في تلاوته، وكنْيته أبو سفيان.

أو بورما وفرنسا مثلا، أو من قِبَل الأفراد التي قد تتمظْهر في ازدراء الرموز الإسلامية كاللحية والحجاب والنقاب والتعاطي معها بخشونة، فقد رأيت المنقَّبات تتجوّلْ بحرية في الفنادق والشوارع وعلىٰ الشواطئ دون قيْد.

وللإسلام تاريخ مديد في جورجيا، يعود إلىٰ عام ٢٠هـ زمن الخلافة الراشدة في عهد سيّدنا عمر بن الخطاب، ومن بعده سيدنا عثمان بن عفان، وتقرأ في الأدبيات العربية والإسلامية القديمة عن بلاد الكرج وهي جورجيا وعن تفليس وهي العاصمة تبليسي.

وعلىٰ خُطىٰ الراشدين، تعهّدت الخلافة الأموية والعباسية الإسلامَ الناشئ والمتنامي في جورجيا وأرمينية وأذربيجان. وحتىٰ عندما طَرد الملك دافيد الرابع (١٠٧٣-١١٢٥هـ) السلاجقة وبسط سيطرته علىٰ جورجيا في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي، ظل سكّان جورجيا المسلمون يعيشون بسلام تحت حكم الملك المسيحي المتديّن الذي منح

المسلمين بعض الامتيازات في النظام الضريبي، وحظر ذبح الخنازير في الأحياء المسلمة، ومنع دخول الأرمن واليهود إلىٰ الحمّام الاسلامي؛ احتراما لتعاليم الاسلام في جورجيا ومعتنِقينه. إلىٰ أن جاء الاجتياح المغولي من منغوليا فدانت لهم جورجيا بل وتصالحَت معهم وشاركتْهم في هجومهم الكاسح علىٰ بغداد والشام.

ومنذ النصف الثاني من القرن السادس عشر عاود المسلمون حضورهم في شخص الخلافة العثمانية، واستمر تواجدهم حتىٰ انتصرت روسيا علىٰ تركيا في عام ١٨٧٨م. وعلىٰ أنقاض الخلافة العثمانية التي تداعت مطلع القرن العشرين، بدأت الحقبة السوفيتية المعادية للإسلام بل للأديان كلّها في جورجيا كما في غيرها من الجمهوريات السوفيتية المسلمة، واستمرّت ما بين عامي ١٩٢٢-١٩٩١، وهو تاريخ استقلال جورجيا، وإن بقي استقلالا منقوصا بخضوع أبخازيا وأوسيتيا للاحتلال إلىٰ يومنا هذا. وخلال تلك الحقبة الشيوعية كم حُظر علىٰ المسلمين ممارسة الشعائر الدينية الاعتيادية! بل وهُدمت مساجد تاريخية كالمسجد الأزرق (مسجد سوميت) في تبليسي، ومسجد العزيزي في باتومي، بينما تمّت إزالة

العديد من مقابرهم بحجّة توسعة حديقة النباتات الوطنية الحالية في تبليسي، والكامنة خلف قلعة ناريكالا الأثرية، ممّا دعا بعض المسلمين إلىٰ الهجرة والنزوح خارج بلدانهم آنذاك.

شَطّاف الحَمّام

نهر كُورا-جسر السلام الزجاجي-تبليسي

لماذا هذا الخصام الأوروبي والأمريكي مع شطّاف الحمّام؟ معلوم أن جورجيا دولة عابرة للقارات، لأنها معبر بين قارتين وواحدة من دول أُوراسيا[1]، وليس هذا لغزا، فهي كتركيا وروسيا، لها عين في آسيا وعين في أوروبا. ولكنها بعد خلعها للعباءة الروسية، صارت تسابق الريح لتكون دولة أوروبية، وكل ما يربطها بالغرب ويقوّي شوكة انضمامها إلىٰ الاتحاد الأوروبي تفعله ولا حرج، ورغم أنّ طلبها للانضمام والذي قدّمتْه رسميا في مارس ٢٠٢٢ لا زال قيد البحث، إلّا أنها علىٰ مرمىٰ حجر من القبول، هذا إن لم يكشّر الدبّ الروسي عن أنيابه ويَعتبر هذا الانضمام باطلا كزواج عتريس من فؤادة في الفيلم المصري الشهير الذي لم أشاهده؛ فالاتحاد نادٍ مسيحي وجورجيا تسعون بالمائة كذلك، ومَن يسير في

(١) اسم مركّب من كلمتَي أوروبا وآسيا، ويشير إلى كتلة دولية تضم بعض دول أوروبا وآسيا المتلاصقة عند الحدود الجغرافية، عددها ٩٤ دولة، ومساحتها ٥٤ مليون كم٢ .

شوارعها –بخلاف المدينة القديمة في تبليسي– سيفتقد الطابع الشرقي المحافِظ ويستكشف الطابع الغربي المتحرّر؛ ملابس فاضحة للنساء، وخمور تباع بلا شرط، وكازينوهات تسهر حتىٰ الصباح، إضافة إلىٰ ناطحات السحاب، وأيضا المراحيض بلا شطّاف.

وهذه المعلومة الأخيرة تعني المسلمين كثيرا، وتعنيني كثيرا جدًّا، وكنت أظنّ أنّ غياب مثل هذا الشطّاف في جورجيا وغيرها من دول أوروبا يعود إلىٰ فقرها المائي وسعيها الحثيث لتوفير كلّ قطرة ماء. ولكن تغيّرت فكرتي تماما في جورجيا عندما رأيت الأمطار تتساقط بغزارة علىٰ مدار العام، والأنهار تجري وتتدفّق في كلّ مدينة حتىٰ أنّ السكّان لا يعرفون أسماءها من كثرتها، وفاتورة استهلاك المياه الشهرية في البيوت زهيدة حسبما حدّثني السائق، أي أنها دولة ثرية وثرية جدًّا من هذه الناحية، ويبقىٰ السؤال، لماذا إذن هذا العداء والحظْر لشطّافٍ مسكين شعاره النظافة الشخصية في أبهىٰ وأزهىٰ صورها؟

أظنّ أن الديانة لا علاقة لها بذلك، فبيوت المسيحيين في مصر تحوي هذه الشطّافات دون بأس، ودول ليست مسلمة كإيطاليا

والأرجنتين وفنلندا والهند لا تخلو حمّاماتها من مثل تلك الشطّافات، وبالتالي أظنّها عادة وثقافة توارثوها جيلا بعد جيل، فتأصّلت وتجذّرت وباتت كجبال القوقاز يصعب اقتلاعها؟ عموما، يبدو أن ثمّة اختراقات في هذا الشأن؛ ففندق كريستال بمدينة بوكارياني كسر القاعدة وما أجمله من كسْر، وكذلك الحمّام في منتزه المياه المعدنية بمدينة بُورجومي، والمحميّة النباتية في مدينة باتومي، إضافة إلىٰ أحد الحمّامات العمومية صادفتُها علىٰ الطريق، وهي حمّامات نظيفة لا تزيد عن حمّام للرجال وآخَر للنساء، تقوم عليها غالبا امرأة، تتحصّل منك علىٰ مبلغ لاري واحد، أي نحو ١٥ج، وتفتح لك حاجزا كذلك الموجود في محطّات المترو.

كانت معلوماتي المغلوطة تشير إلىٰ وجود نهريْن لا غير؛ نهر ميتكفاري أو كُورا، الذي ينبع من شمال شرقي تركيا ويَعبر الأراضي الجورجية وصولاً إلىٰ جمهورية أذربيجان حيث يصبّ في بحر قزوين إلىٰ الجنوب من العاصمة باكو بحوالي 140 كم. وهو النهر الأشهر؛ لأنه يشقّ العاصمة تبليسي شقًّا كنهر النيل في مصر، ولأنه يمتدّ في ثلاث دول بطول يبلغ ١٣٦٤كم، ولكن ٨٥٪ من كعكته تقع في الطبق الجورجي، وعليه اقْتاتت المراكب النهرية، وبُني جسر

السلام الشهير، وشُيّد تليفريك العاصمة الذي يُعدّ وجهة سياحية ممتازة. وطبعًا لا مقارنة بينه وبين نهر النيل، الذي يبلغ طوله ٦٦٥٠كم، ويمرّ بإحدىٰ عشر دولة أفريقية..

وكما أن مصر هبة النيل حسب تعبير المؤرّخ الإغريقي هيرودوت، فلا غضاضة في القول بأن تبليسي هبة كورا، وباتومي هبة البحر الأسود، بينما جورجيا هبة المطر والخضرة والجوّ الحَسَن، وكل ما علىٰ الأرض في جورجيا وغيرها هو هبة من الله ذي المَنّ والعطاء.

أمّا النهر الآخَر الشهير فهو نهر رايوني، المرتبط بالمدينة الثانية الأشهر وهي كُوتايْسي في غرب جورجيا، وينبع من جبال القوقاز في إقليم راتشا، ويصبّ في البحر الأسود، ويبلغ طوله 327 كم. وصحيح أنه أقصر من زميله في العاصمة ولكنه أعرض، وينزح منه الصيادون سمكا وفيرا، ومن هذا السمك ميّزْت علىٰ الطريق مع الباعة، وأغلبهم نساء أيضا، سمك البوري بأحجامه العديدة، وسمك دُورَادُو المعروف لدينا بمبروك البحر أو البلطي، إضافة إلىٰ السردين والسالمون.

ومن المناظر البديعة التي يمكن التقاطها عبر الصعود إلىٰ قمة دير جفاري (Jvari Monastery)، التقاء نهرَي أَراجْفي وكُورا، في العاصمة الجورجية القديمة مِتِسْخِيتا الواقعة في شرق البلاد والقريبة من العاصمة الحالية تبليسي. ويبلغ طول نهر أراجفي هذا ٦٦ كيلومتر، ويصبّ فيٰ أخيه الأكبر نهر كورا.

وعلىٰ هذه الأنهار أُقيمت السدود لتوليد الكهرباء، ومنها سدّ أنانوري أو إنجوري الواقع علىٰ نهر إنجوري في غرب جورجيا بالقرب من المنعطَف الذي يغادر فيه النهر جبال القوقاز متّجها إلىٰ البحر الأسود. وهو عبارة عن سد مقوَّس ضخم بارتفاع ٢٧٢ مترًا وبطول قمّة تبلغ ٦٨٠ مترًا، وبهذا الطول الباسق يُعدّ أعلىٰ سدود العالم وكذلك ثاني أكبر السدود الخرسانية. وقد تمّ بناؤه عام ١٩٨٠ من أكوام متداخلة من الأحجار الخرسانية المتراصّة فوق حجر أساس من الحجر الجيري المقوَّىٰ، ومن مياهه يجري توليد ١٣٠٠ ميجاوات من الطاقة الكهربية.

ومن بين الجسور الكثيرة التي تتمدّد فوق الأنهار وتربط بين القرىٰ والبلدات، جسر ماخونسيتي الذي زرناه في آنٍ واحد مع شلّال

ماخونسيتي بالقرب من مدينة باتومي، وهو جسر مقوّس تتجلّىٰ فيه الصنعة الهندسية، إذ لا يقوم علىٰ أعمدة، وجسمه من الأحجار الصلبة البركانية، بطول ٢٩ مترا، وعرض ثلاثة أمتار، وبارتفاع ستة أمتار عن سطح الماء، ويعود بناؤه إلىٰ القرن الثاني عشر الميلادي!

وغنيٌّ عن القول أن الماء قرين الخير، وفضله علىٰ النبات والحيوان والجماد والإنسان لا يُنكَر؛ إذ تنمو الأشجار فتخدم الإنسان بأكثر ممّا يخدمها، وينبُت العشب فيكسو عرْي الأرض بسندس أخضر ترعي عليه الحيوانات وتمرح، وهذا غيض من فيض الخير الذي يعمّ الأرجاء جرّاء توفُّر الماء.

ولكن كيف تغلّبْت علىٰ عقبة الشطّاف؟

لحسن حظ المساكين أمثالنا، تتوفّر شطّافات يدوية عدّة، بعضها يعمل ببطارية شحن ويسع كمية مياه لا بأس بها، وعلىٰ أحدها وقعَت عيني وأوصتْني بها ابنتي من خلال خبرة عيشها في ألمانيا، وجدتُها خفيفة الوزن لطيفة الشكل، علىٰ هيئة مضخّة من المطّاط. ولكن قبل السفر بأيام قلائل اكتشفْت عدم توفّرها في السلطنة، فتمخّضَت القريحة عن

قارورة من البلاستيك المطّاط، صناعة مصرية بثمن زهيد للغاية، لها رقبة تغوص داخل فتْحتها وتخرج عند الطلب، وتسع ٧٤٠ ملليلتر، فأدّت الغرض بامتياز، وذلك بشهادة مَن أَعرْتُهم إيّاها من السيّاح العرب حين وجدتُهم في حيص بيص داخل حمّامات مطار تبليسي.

وهي في الأساس، ليست سوىٰ قارورة ماء تستعين بها الأمّهات لأطفالهنّ الصغار، ويحملها طلّاب وطالبات المدارس. وهكذا الحاجة أُمّ الاختراع، وتَذكَّروا مساهمتي في هذا الاختراع.. وليت الأمم المتحدة في احتفالها بيوم دورات المياه العالمي الموافق التاسع عشر من نوفمبر كل عام، تقول لهذه الدول المعادية للشطّافات: اختشوا علىٰ دمكم.

ولعلّ بعضكم يتذكّر دهشة المشجّع البريطاني في كأس العالم الأخيرة بقطر عام ٢٠٢٣ من هذه الشطّافات داخل الحمامات، وتَبنّيه ما أسماه ألتراس الشطّافة لتعميم استخدامها في بريطانيا، ورعبه الشديد من استمرار أوروبا في استعمال المناديل الورقية علىٰ هذا النحو المُزري بعيدا عن الماء!

وفي هذا أذكر أنّ أوّل عهدي بالمرحاض الخالي من الشطّاف كان في الطائرة، ومن يومها آليت علىٰ نفسي هجران حمام الطائرة ما استطعْت إلىٰ ذلك سبيلا، ولكن مع هذا الشطّاف المتنقِّل سيزول الهجر بالتأكيد ولو جزئيًّا.

كما أذكر أنّني في أحد المؤتمرات الطبيّة المُقامة بجامعة عربية، تورّطْت في دخول حمام اكتشفْت أنه بلا شطّاف، ولمّا تفقّدْت بقية الحمّامات وجدتُها علىٰ خلاف ذلك، ففهمْت أن هذا الحمام تحديدًا لخاطر عيون بعض الأجانب من أعضاء هيئة تدريس الجامعة الموقَّرة!

مَملكة رُوسْتافِيلي

شُوتا روستافِيلي

ما تزال الأمم بخير، إن مجَّدَت مفكِّريها من الأدباء والعلماء مثلما تمجِّد زعماءَها السياسيين وقوّادَها العسكريين الذين يستحوذون عادة علىٰ أكبر قدر من التبجيل والتمجيد، علىٰ اعتبار أنّ الماء كما يُقال لا يمرّ علىٰ عطشان، وطبّاخ الحلوىٰ أوّل مَن يتذوّقها، وهذا الاعتبار مقبول شريطة أن لا يشرب هذا السياسيُّ العطشان كلَّ الماء فلا يُبقِي منه شيئا، وأن لا يأكل ذاك العسكريُّ الطبّاخ كلَّ الحلوىٰ ثمّ يترك الآخَرين يتلمّظون ويتحسّرون، ومِن هذا الأخير عدّ كثيرًا في بلادنا ولن تُحصي.

وقد أعجبني في مطار تبليسي[1]، وفيه الكثير ممّا لا يعجب، أن كُتب علىٰ واجهته، مطار شوتا روستافيلي (Shota Rustaveli)، وكأنّك بصدد الدخول إلىٰ مملكة

(١) أُنشئ عام ١٩٥٧ وتم تحديثه وتطويره عام ٢٠٠٧م.

روستافيلي، وليس إلىٰ جورجيا بمؤسِّسها الملك دافيد وسَمِيِّها القدِّيس جورج..ليس هذا فقط، بل إنّ تمثالا، ومحطة مترو، وفندقا، ومسرحا، ومتحفا، وقناة تليفزيونية، وجامعة حكومية في مدينة باتومي، كلّها رَصّعت جبهتَها باسمه. وعلىٰ شرفه أيضا تُقام جائزة أدبية وفنيّة كبرىٰ يتنافس فيها كبار مُبدعي جورجيا، وتتصدّر صورتُه أوراقَ النقد الجورجية من فئة مائة لاري، وهي الصورة ذاتها المطبوعة علىٰ طابع بريد تذكاري يعود إلىٰ الحقبة السوفيتيّة.. أمّا شارع روستافيلي؛ فهو شارع راقٍ يذكّرك بشوارع حيّ الزمالك في القاهرة مع الفارق، يبدأ من ساحة الحرية الشهيرة بمركز العاصمة، ويمتدّ لمسافة 5و١ كم تقريباً إلىٰ أن يتحوّل إلىٰ امتداد لشارع كوستافا، وبه توجد العديد من المرافق الحكومية المهمّة كمقرّ البرلمان، والمباني الثقافية مثل دار الأوبرا، إضافة إلىٰ فنادق عالمية ومحلّات تجارية كبرىٰ. ومنه –ومِن غيره في أرجاء العاصمة– ترىٰ بوضوح أعلىٰ فندق بواجهة زجاجية في منطقة القوقاز[1] بكاملها،

(١) منطقة القوقاز، هي الرقعة الجغرافية الواقعة بين بحر قزوين والبحر والأسود وتتوسطها جبال القوقاز، وتشمل أجزاء من ست دول هي؛ روسيا وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا، إضافة إلى تركيا وإيران .

وهو ناطحة سحاب (ذي بيلتمور) الزرقاء، المملوكة للإمارات العربية المتّحدة، والمُفتَتحة عام ٢٠١٦م بحضور الشيخ نهيان بن مبارك وزير الثقافة الإماراتي آنئذ.

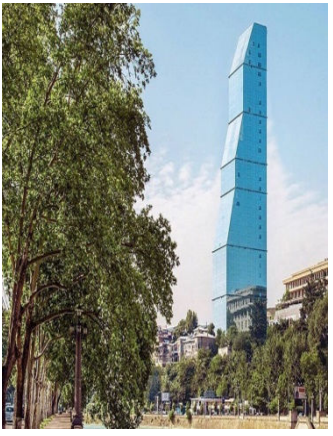

وفي متحف الفنّ الذي يسكن قلب مدينة باتومي النابض، كان تمثاله النصفي أوّل ما صافح عيني علىٰ يمين المدخل مباشرة؛ في ملابس تقليدية بيضاء كمَلاك، وطاقية مميّزة تأخذ شكل الهرم، وشارب أنيق يحلّق فوق الشفة العليا كجناحَي طائرة، مع ملامح هادئة ونظْرة حالمة متأمِّلة، وقلم في يمناه يكتب ما تُمليه عليه تلك النظرة الرزينة الوادعة. وبالمناسبة فإنّ كلمة قلم وكذلك فكر وغيرها من كلمات عدّة تجدها كما هي في صميم اللغة الجورجية وكأن بينها وبين العربية حبل سُرِّيّ.

فمَن هو روستافيلي؟

ولماذا هذا الاحتفاء اللافت به وهو ليس جنرالَ حرب ولا زعيمَ سياسة ولا مخلِّصًا دينيّا؟

هو متنبّي جورجيا في القرون الوسطىٰ[1]، وبمكانة شكسبير في الأدب الإنجليزي وجوته في الأدب الألماني؛ وُلد عام ١١٧٢م، وعاش في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي، وترجع تسميته إلىٰ مسقط رأسه في قرية (روستافي)، إحدىٰ قرىٰ إقليم سامتسخي ٣٠ كيلومتر جنوبي غرب مدينة بورجومي، وكثيرا ما يخلط البعض بينها وبين روستافي الكائنة في الطرف الجنوبي للعاصمة تبليسي. وقد نبغ في الشِّعر منذ نعومة أظافره وطراوة عوده، ولقرْبه من البلاط الملكي في عهد الملك جورج الثالث حفيد دافيد أغماشنبيلي أو دافيد المؤسِّس كما يسمّونه، افتُتن بأميرة البلاط الملكي ووريثة عرش أبيها تمارا، وفي عهدها الذهبي ترقَّي حتىٰ أصبح وزير ماليّتها وخازن بلاطها في سنّ الخامسة والعشرين فقط، وأهداها ملحمته "الفارس في إهاب النمر" أو "فيخيستكاوساني" كما تُعرف باللغة الجورجية ..

(١) هي التسمية التي تُطلق على الفترة الزمنية الممتَدّة في التاريخ الأوروبي من القرن الخامس حتّى القرن الخامس عشر الميلادي، وتبدأ بانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية وتنتهي بحلول عصر النهضة والاستكشاف .

وهي قصيدة ملحمية، تتكوّن من ٦٦١٢ بيتا، مجزّأة إلىٰ رباعيات عددها ١٦٥٣ رباعية، مع اختلاف القافية من رباعية لأخرىٰ، في تأثُّر واضح بالشعر الفارسي يذكّرك برباعيات عمر الخيام ويؤشّر علىٰ إلمامه باللغة الفارسية، وما بلاد فارس عن جورجيا ببعيد سواء من ناحية الجغرافيا، أو من ناحية التاريخ القديم الذي كانت فيه جورجيا يوما ما جزءا من الامبراطورية الفارسية، أو التاريخ الحديث الذي يدلّ عليه -ضمن شواهد أخرىٰ كثيرة- مجلة أسبوعية جورجية تصدر بالفارسية وتلقىٰ رواجا وهي مجلة (أريانا). والحضور الإيراني ليس قاصرا في القوقاز علىٰ جورجيا، بل يتمدّد وبوتيرة أسرع في الجمهوريات الإسلامية المستقلة عن روسيا، ولا ينازعها في ذلك سوىٰ تركيا، ولا غرابة، فالمسرح القوقازي يتنازعه في الخفاء عمالقة ثلاث، روسيا وتركيا وإيران، والبقية يتمنّون لهم الرضا ولا يطلبون منهم سوىٰ ما يطلبه الحمل من أمان في جوار الأسد.

وتحكي الملحمة عن ملك عربي أصيل، وقصتيْن من الحبّ العُذري، في أجواء أسطورية أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، تتداعىٰ بين سطورها الكثير من المعاني الوطنية والقيم الإنسانية مثل الحبّ والفروسية والشهامة والصداقة، ممّا جعلها عالمية الطابع وفتح لها

باب القبول بين شتّىٰ الألسُن. طُبعت للمرّة الأولىٰ مطلع القرن الثامن عشر(١٧١٢م)، أي بعد خمسة قرون من وفاته. وقَلّ في تاريخ الإبداع العالمي أن حظي مؤلَّف بنفس القبول الحميم الذي حظيت به من الجمهور وما تزال؛ فبعد زمن يسير من صدورها، تجاوزَت حدود الطبقة النبيلة المثقَّفة، إلىٰ عامة الناس الذين دأبوا علىٰ إنشاد أبيات منها في حفلاتهم واجتماعاتهم، بل وجعلوها هدية الزواج إلىٰ العروس تحملها معها إلىٰ بيت الزوجية كالغسّالة والثلاجة وغرفة النوم..

ناهيك عن الجنود الذين كانوا ينشدونها بدورهم في سبيل شحْذ عزائمهم وهم في طريقهم لصدّ جحافل المغول الغازية. وقد تخطّت هذه الصلة الوثيقة التي ربطت الجورجيين والملحمة حدود الزمان والمكان، وأضفوا عليها من الهالة ما جعل البعض يلقّبها بالكتاب الثاني المقدَّس لجورجيا، علىٰ اعتبار أنّ الإنجيل هو كتابها المقدَّس الأوّل، وهذا ما يدلّ عليه توالي الإصدارات وعدد الطبعات التي بلغت أكثر من أربع عشرة طبعة، وكذلك ترجماتها إلىٰ لغات شتّىٰ في الشرق والغرب، ومن بينها العربية بعدما طبعتْها الهيئة المصرية العامة للكِتاب عام ٢٠١٦. ولارتباطها الموضوعي بالثقافة العربية

وتضمينها بعض آيات من القرآن الكريم، تساءل بعض الدارسين الغربيين عن ديانته وكأنهم شكّوا في إسلامه، وما هو بذلك.

فعلىٰ طريقة الزهّاد والرهبان، غادر جورجيا قاصداً القدس، ربما لقهر أصابه عقب رحيل الملكة تمارا[1]، حيث قضىٰ أواخر أيامه وتُوفّي ودُفن هناك بدير الصليب الجورجي المقدَّس بفلسطين عام 1216م، أي بعد وفاة فاتنته ومَلِيكته تمارا بأربع سنوات. ويوثّق ذلك الرحيل والختام، جداريّةٌ في الركن الجنوبي الغربي للدير تحمل صورته، رفقة نقْش باللغة الجورجية يَنسِب إليه شرف ترميم الدّير وتزيينه بالنقوش، مع العلم أنّ تاريخ ميلاده ووفاته تقريبيان ومختَلَف حولهما.

وفي استفتاء أُجري قبل خمس سنوات حول أفضل كُتّاب العالَم، وشارك فيه ٢٥٠ مليونا علىٰ مستوىٰ العالم؛ جاء ضمن الثلاثين

(١) مات الملك جورج الثالث، ولم يعقّب سوى ابنته تمارا التي نصّبها الشعب والكهنة ملكة عليهم وهي في سن الثالثة عشرة، وحَكَمت من عام ١١٨٤م إلى ١٢١٢م كأوّل امرأة تجلس على عرشهم، وفي زمنها تقدّمت مملكة الكُرْج (جورجيا)، وقهرت جيوش الفرس والسلاجقة، فأحبّها الشعب إلى درجة التقديس، وخلَفَها في الحُكْم ابنها جورج الرابع.

الأوائل بعد البريطانية ملكة الروايات البوليسية أجاثا كريستي، والتشيكي رائد الكتابة الكابوسية فرانز كافكا، والروائي الإيرلندي جيمس جويس، والروائي الأمريكي سكوت فيتزجيرالد، وآخَرين.

ضريبة السفَر

بحيرة السلاحف-تبليسي

في الأسفار تتعدّد النوايا وتختلف الأغراض؛ منّا مَن يسافر لطلب العلم، أو البحث عن لقمة عيش، أو للعلاج من داء، أو هربًا من اضطهاد، أو قياما بواجب الدعوة إلىٰ الله. ومنّا مَن يسافر للسياحة، وهذا الأخير كالحجّ، حصرًا لمَن استطاع إليه سبيلا، والاستطاعة هنا مادية وبدنية ومعنوية..

الاستطاعة المادية معروفة ولا تخفىٰ علىٰ أحد؛ فشركات الطيران ليست جمعيات خيرية تتصدّق علىٰ السيّاح، بل إنّها بعد التعافي من أزمة كورونا المستفحِلة، كشّرت عن أنيابها كنمر جائع لتعويض خسائرها عبر تحقيق أرباح قياسية بأكثر من طريقة..

انظر مثلا إلىٰ شركة العربية للطيران التي ربّما تقلّ أسعار تذاكرها عن بقية الشركات، وكيف أنها تعطي بيد وتأخذ بيد؟! وذلك عن طريق بيع الوجبات والمشروبات أثناء الرحلة، وبالطبع الأسعار في الجوّ ليست كالأسعار في البرّ، وادفع أيها السائح المسافر الجائع العطشان، وعلىٰ رأي المثل الدانمركي: مَن يودّ السفر عليه أن يفتح محفظته و يقفل فمه.

وإذا نجوت من شركات الطيران فستجد الفنادق بانتظارك، ولهم في ذلك حيل كالحُواة، فحين يتكرّمون بتوفير وجبة الإفطار مع المبيت دون بقيّة الوجبات، لا بد في الأمر (إنّ)، إذ يعلمون أن نصف النزلاء يفضّلون النوم علىٰ الإفطار، ومَن يصحو منهم فإنّ الشهيّة لا تسعفه، ومَن يأكل فقليلا ممّا علىٰ المائدة يصفّون. وفي هذا، أذكر أن ابنتي (آية) في الفنادق الثلاث التي نزلنا بها في تبليسي (فندق ريزيدنس بلازا) وفي بوكارياني (فندق كريستال) وفي باتومي (فندق أكوا)، فضّلت النّوم ولم تقايض عليه، بينما اكتفيتُ أنا بالشاي مع الحليب وبعض الشوربة وشرائح الفاكهة. ثم إنهم يُسيلون لعابك ويَجرّون قدمك عبر حشو الثلاجة بالعصائر والبسكويت والشكولاتة، والحساب يجمع عند المغادرة، ودائما القريب من اليد قريب من التناوُل.

وخارج الفندق ينتظرك جشع بعض السائقين، وتلك محنة لم أتعرّض لها ولله الحمد، لأنّ الشركة السياحية[1] وحسب الاتفاق وفَّت بوعدها تماما حيال توفير السائق مِن وإلىٰ المطار وعلىٰ امتداد التسعة أيام.

(1) Free spirit tours company

ومع بائعي الهدايا التذكارية لا بدّ لك يا عزيزي من قصص وحكايات؛ فبعض الأخذ والردّ يمكنك تخفيض السِّعر إلىٰ النصف، وأذكر أنّ حقيبة بسيطة لا يميّزها سوىٰ بعض النقوش الدالة علىٰ جورجيا وجدناها في أحد المحال أضعاف محلّ آخر في مدينة مجاورة، بل وفي محل واحد سألت اثنين من البائعين عن سعر ميدالية تذكارية فأخبراني بسعر مغاير!

وفي المطاعم شيء من ذلك؛ ففي مدينة بُورجومي تناولنا غداءنا في مطعم تركي مميَّز في موقعه ومكتظّ لدرجة أننا بصعوبة حصلنا علىٰ مقاعد أربعة لي ولزوجتي وابنتي والسائق، وعند مراجعة الفاتورة تبيّن لي أن المبلغ المطلوب أكثر ممّا في قائمة الأسعار، وعند السؤال، والسؤال ليس بحرام كما يُقال، كان الجواب جاهزا وحاسما، الضريبة، كم الضريبة؟ ١٥٪، آمنْت بالله واستقمْت..

وبعد يومين، وفي مدينة باتومي، وفي مطعم تركي آخر يدعىٰ إزمير، وبينما أتفقّد الفاتورة بعد الغداء، ومحفظتي مُهيَّأة لقبول الضريبة بنسبة ١٥٪، إذ بي أجدها ٣٪ فقط! هل خفّضَت الحكومة

الضريبة إلىٰ هذا الحدّ في أقلّ من ٤٨ ساعة، بالطبع لا، ولكن للسياحة أحكام أخرىٰ!

ولا تقلّ الاستطاعة البدنية عن المادية؛ إذ للأماكن طعم ولون ورائحة لا تتحصّل عليها سوىٰ بالتجوّل مشيًا علىٰ الأقدام، خاصة في مدينة كتبليسي مبنيّة علىٰ تلال وهضاب، وتتطلّب الصعود والنزول تارة ثم الصعود والنزول تارة أخرىٰ. ولأنّ متعة المنظر تسرقك وكالمغناطيس تجذبك، فإن الأقدام تتعب في صمت ولا تئنّ إلّا بعد الإياب، وعندها ستردِّد: لأجل الورد تحتمل الأيدي وخْزَ الشوك، أو كما يقول المثل المصري: لأجل الورد يِنسقي العلِّيق.

ونصيحة خالصة لوجه الله، لن يسعفك في هذا التجوال، سوىٰ الزيّ الرياضي؛ قميص قطني يسمح بدخول الهواء من الجهات الأربع، وسروال تحت الركبة يسترك عند الصلاة، وحذاء من خِفّته يسبقك حين تمشي ومن حنانه يربت علىٰ قدميْك حين تقف أو تجلس، مع الإيمان العميق بالقول المأثور: الطريق يصنعه المشْي.

وفي استطراد يسير عن فضل الرّاجِلين علىٰ الرّاكبين في تحصيل متعة التجوال أثناء السفر، أنقل ما كتبه أمين سلامة[1] في كتابه (حياتي في رحلاتي)، حين قال: "لاحظْت أنّ الراجلين أسعد حالا من الراكبين؛ يَنعَم الراجلون بمَن معهم ومَن حولهم. والراجل يرىٰ أكثر ويتأمّل أكثر ويُبطئ أكثر وأكثر، فيرتاح ويَسعَد. والرّاجل لا يشتهي أن يرىٰ أكثر ممّا تساعده قدماه علىٰ أن يرىٰ، وعندئذ يراه جيّدا وبإمعان. والراجل يتمخطر ويتبختر، إنه حرٌّ بمعنىٰ الكلمة؛ قد يحلو له أن ينتقل من طوار إلىٰ طوار، ومن مقهىٰ إلىٰ آخر، وقد يروقه أن يغمض عينيه دون خوف ولا وجل، وينثني أو ينحني حتىٰ يكاد رأسه أن يصل إلىٰ قدميه كي يحكم رباط حذائه أو يزيل عنه غبارا أو ليلتقط شيئا من الطريق.. فمَن مشىٰ كثيرا؛ كَثُر زاده، واشتدّت ساقه، وطال عمره".

---

(١) كاتب مصري، وُلد عام ١٩٢١، وتخرّج في كلية الآداب جامعة القاهرة، وأَلـمّ باللغات الإنجليزية واللاتينية واليونانية، وتُوفّي عام ١٩٩٨، بعدما ترك وراءه إنتاجا وافرا في الترجمة وأدب الرحلات والسرد والزجل.

في بحيرة السلاحف (Turtle Lake) الخالية من السلاحف، والموجودة بناحية فاكي داخل العاصمة تبليسي، علىٰ ارتفاع ٦٨٦ مترا فوق سطح البحر، وبعمق ٦و٢ مترا، ويغذّيها نهر فارديزيا أحد فروع نهر كُورا؛ ستنزل منحدرا حين تحذو حذْونا في استئجار قارب تسبح به كالسمكة في البحيرة. ثم تصعد تلّةً وسلّما، لخوض غمار الإثارة عبر التحليق كطائر بالزِّيبلاين أو السفينة الهوائية. أمّا إن لازمك الخوف مثلي تجاه هذا الزيبلاين الطائر وآثرْت السلامة، فلا مناص من إعمال القدمين في الممشَىٰ الدائري الطويل حول البحيرة، ولثلاثتهم (القارب، والزيبلاين، والمَمشي) روعة يزيدها عناق اللون الأخضر مع الماء الجاري والهواء النقي روعة فوق الروعة؛ فمِن صفاء ونقاء هذا الهواء تتمنّىٰ لو لك بدل الأنف اثنين وبدل الرئتين أربع، ولجمال اللون الأخضر النّضِر الذي يكسو الهضاب والتلال كالطوق حول البحيرة تتمنّىٰ لو لك بدل العينين ثلاثة.

وممّا لا يُنسىٰ، أن ابنتي ذات الثلاثين كيلوجراما لا غير، علقت في نهاية مسار الزيبلاين الذي يقطع البحيرة من شمالها إلىٰ جنوبها، حتىٰ أصبح الماء تحتها والسماء فوقها والهواء يلفّها، ولهذا امتقع وجهها رغم جرأتها وتجلّدها، بينما أوشكت أمّها -التي ركبت بعدها علىٰ مسار آخر ووصلت قبلها- علىٰ الصراخ وإعلان النفير العام، لولا أن بادر المسئول بحيلة خلّصنا من هذه الورطة، ولعلّه أدرك خطأه حين لم يستجِب لاقتراح لم أصر عليه يقضي بركوبها مع الأم نظرا لخفّة وزنها.

وبعد الاستطاعة المادية والبدنية، لا بدّ لك من نفَس طويل وصبر وطاقة؛ فقد يعتريك في السفر ما لم تحسب له حسابك وما لم يخطر أبدا ببالك..

ففي مطار مسقط الجميل، وكل ما في سلطنة عمان جميل، وبعد سفر من المدينة التاريخية صحار استغرق بنا نحو ساعتين ونصف (٥.٣٠-٨ص)، وأثناء الانتظار في أوّل طابور أمام مكتب طيران العربية والتي ستُقلّنا إلىٰ الشارقة ومنها إلىٰ تبليسي بعد توقُّف لساعتين ونصف هناك، اكتشفْت نسيان الجاكت في السيارة، وهو الجاكت الشتوي الذي نُصحت باصطحابه وقاية من برد جبال

القوقاز في منطقة جوداوري وكازبيجي وما حولها، فاضطُررت للاتصال بصديقي السائق للعودة من طريقه الذي قطع فيه مسافة لا بأس بها، إذ إنني صديق الحرّ وعدوّ البرد، ربما لطول المكث في الخليج، وربما لكبر السنّ أو قلّة الشحم أو لغيره من الأسباب لا أدري.

وعلىٰ بوّابة الدخول إلىٰ ختم الجوازات وإجراءات الأمن، يبدو أنني أخطأت حين ألقيت علىٰ الموظّفين الجالسين السلام، إذ انتبهوا إلىٰ الحقيبة الوحيدة التي نحملها، ورغم أنّ وزنها أقلّ من المسموح به علىٰ الطائرة وهو عشرة كيلوجرامات، إلّا أنهم ادّعوا كبر حجمها وضرورة العودة لشحنها أو الإتيان بموافقة من مكتب الطيران، وهم يعلمون علم اليقين أن رأس زملائهم في مكتب الطيران أصلب من حجر ولن يوافقوا ولو عزفْت لهم السيمفونية التاسعة لبيتهوفن، وأظن أن عين الموظف أخطأت القياس، إذ رأيت بعد صعودنا إلىٰ الطائرة حقائب عدّة من نفس الحجم، وللتأكّد قِست أبعاد الحقيبة لاحقا فوجدتُها طولا× عرضا× عمقا (٥٥×٤٠×٢٠سم) أي مطابقة للمواصفات المعلَن عنها علىٰ موقع الشركة، والحقّ أن اقتراحه كان جيّدا وكفانا عبء حملها في الركوب والنزول، كما أنها لم تُفقَد كما

كان هاجسُنا الذي استند إلىٰ حقيقة أنّ بعض الرحلات غير المباشِرة والتي يكثر فيها نقل الحقائب من طائرة إلىٰ طائرة تصبح الأمتعة عرضة للضياع في دهاليز المطارات.

أمّا الثالثة، فكانت عند ختم الجوازات بختم الخروج من السلطنة، إذ اتضح أن لديّ مخالفة مرورية لا بد من دفعها قبل المغادرة، ولا علم لي ولا للموظّف بسبب ومكان وزمان المخالفة، طبعا استغرق هذا وقتًا لدفعها، لأنّ ماكينة الصرف الآلي عاندت في إنجاز المعاملة، واضطُررت للعودة إلىٰ شرطيّة الجوازات التي أحالتني إلىٰ شرطيّ مخوّل بإنهاء المعاملات عبر ماكينة خصم يدوية، ولهذا من الحكمة الحضور إلىٰ المطار قبل الإقلاع بوقت كافٍ تحسُّبًا لمثل هذه المفاجآت غير السارّة.

أمّا الطامة الكبرىٰ فكانت عند الوصول إلىٰ مطار تبليسي بعد رحلة طيران من الشارقة إلىٰ تبليسي استغرقت ٣ساعات؛ إذ استقبلتْني شرطيّة الجوازات بوجه أبيض بارد كالثلج، وبعد أن طالعَت تذاكر السفَر الموثَّقة ذهابا وإيابا، وقلَّبت جوازات سفرنا الخضراء المزيَّنة بنسر ذي جناحيْن، طلبَت ما يثبت التأمين الطبي خلال أيام الرحلة، فناولتُها الأوراق الثلاثة مطبوعة، ثمّ زادت

وطلبَت ما يفيد حجز الفنادق مدفوعا ومؤكَّدا، وعادت فسألت عمّا أحمله من دولارات؟ وطلبَت رؤيتَها؟ وكدت أُقسم عليها لِتعدّها دولارًا دولارا! ثمّ طلبَت الاطّلاع علىٰ بطاقات الإقامة في السلطنة والتي تخوّلني الدخول دون تأشيرة مُسْبَقة تُطلَب من بعض الدول كمصر[1] مثلا. وبينما حسبْت المرافعة انتهت وصدر حكم المحكمة ببراءتي من تهمة غزو جورجيا والاستيلاء علىٰ جبالها وسهولها وأنهارها عبر التذاكر القاذفة للقنابل وجوزات السفر سريعة الطلقات والدولارات المضادّة للدبّابات، خاصة أنها سحبَت ختْما عريض المنكبيْن كمطرقة طالما رأيتُه في السفارات ومقرّات وزارة الخارجية، ووضعَت كفّها عليه تمهيدا لطبْع ختم الدخول بكبسة واحدة إلىٰ أسفل؛ إذّ بها تتردّد كمَن سيشرب سُمًّا، ثمّ ترفع يدها وتمسك بهاتفها الجوّال. ومِن روغان بصرها بين جواز السفر والإقامة، وإيماءات رأسها وإشارات يدها المريبة، خمّنْتها تحادث رئيسَها قائلة: هنا سائح عربي مصري، قادم من الخليج، له لحية،

(١) يتطلّب السفر من مصر –حسب الإجراءات المعمول بها الآن– تأشيرة الكترونية عبر الإنترنت أو ورقية عبر السفارة، ويُضاف إليها التصريح الأمني لمَن هم تحت ٤٥ عاما.

أوراقه مكتملة، ولكن الصورة الشخصية في جواز "السفر لا تشبه تلك التي في الإقامة؟ ثمّ أحالتْني إليه في طرف قَصِيّ من صالة الإجراءات.

وعنده وجدتُ آخَرين أغلبهم من العرب! وبعد الانتظار وقوفا خلف خط أحمر، وسؤال تلو سؤال عن سبب المَجيء؟ ومع مَن؟ وكم سأمكث؟ ثمّ ذهابه وإيابه أكثر من مرّة علىٰ غير هدىٰ كمَن يلعب بأعصابك ليس غير، إذْ به يصحبني إلىٰ الشرطية إيّاها مشيرا لها بإنهاء إجراءات الدخول، وهو ما فعلتْه ولكن ببطء وبعد تصويري مرّتيْن، ثمّ ناولتْني الجواز دون ابتسامة أو كلمة الترحيب المعتادة (welcome in georgia)، وبالطبع دون زجاجة الخمر التي ذكر لي زميل هندي أنه زارها في عام ٢٠١٥، وناولوه إيّاها مع ختم الدخول كنوع مع الترحيب.

وهكذا يظلّ السفر قطعة من العذاب في القديم والحديث كما جاء في الحديث الشريف[١]، أو كما زايد أحدُهم فقال: "كنت أحسب

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السفر قطعة من العذاب، يَمنع أحدَكم طعامَه وشرابَه وثوبَه ونومَه، فإذا قضى أحدُكم نَهْمتَه من سفره فلْيعْجَل إلى أهله."

السفر قطعة من العذاب فإذا بالعذاب قطعة منه"، ربما كانت الطرق قديما أكثر وعورة وأقلّ أمانا، وكانت وسائل التنقّل أبطأ وأشقّ، ولكن لم تكن هناك مطارات ولا تأشيرات، ولا وجود لشرطيين خلف شاشات يقدّمون سوء الظنّ ويعتبرون كلَّ مجهول عدوًّا محتمَلا وكلَّ غريب مصدرًا للخطر والأذىٰ، فقط كانوا يركبون الخيل أو الناقة ويطلِقون لسيقانْها العنان، وتلك حرية نغبط عليها الرحّالة الأوائل ابن بطوطة وابن جبير وابن فَضلان وماركو بولو والإدريسي وغيرهم.

ولهذا عارض أحدُهم ما قِيل عن فوائد السفر بقوله:

تَخلَّفْ عن الأسفار إن كنتَ طالبا
نجاةً ففي الأسفار سبْع عوائقِ
تفكُّرُ إخوانٍ وفقْدُ أحبّةٍ
وتشتيتُ أموالٍ وخِيفةُ سارقِ
وكثرةُ إيحاشٍ وقلّةُ مؤنس
وأعظمها يا صاح سكْنىٰ الفنادقِ

من النافذة

مطار تبليسي

من حُسن حظّي، أن أقلعَت الطائرة من مطار الشارقة إلىٰ تبليسي بأكثر من ثلث مقاعدها خالية من الركّاب؛ إذ منحني هذا فرصة ثمينة للتمدّد علىٰ ثلاثة مقاعد متجاورة كسرير، ومن ثمّ الظفر بغفوة طويلة هي الحدّ الأقصىٰ من نوم يستعصي عليّ في وسائل المواصلات بشتّىٰ أنواعها، برّية وبحْرية وجوّية. نفعتْني هذه الغفوة في الاقتناص السريع لورقة بين يدين ممدودتين وسط جموع المستقبِلين في ساحة الوصول بمطار تبليسي.. الورقة مكتوب عليها اسمي، والمنتظِر هو السيد كِيلا السائق الجورجي الموفَد من قِبَل الشركة السياحية لاستقبالي واصطحابي طوال رحلتي الميمونة بكاملها.

لا أخفيكم سرّا، المطار متواضِع مقارَنةً بمطار أبو ظبي الذي توقّفنا فيه أثناء رحلة العودة لنحو ساعة ونصف، أو مطار مسقط الذي منه أقلعْنا وإليه انتهينا، ويكفي العلم بأنّ الطريق الإسفلتي منه وإليه مسكون ببعض الحفر التي تبدو كالبثور علىٰ الوجه! ومن نافلة القول، أنّ المطارات واجهة البلدان وأقلّ عيب فيها يشين البلد ويهينه. ومع هذا، يلفت نظرك وفرة العشب الأخضر حول مدرج

الهبوط الذي تجده قاحلا في غيره من المطارات. وأظنّ أن مطارَي باتومي وكوتايسي لن يختلفا عن مطار تبليسي، وربّما كانا أكثر تواضعا؛ علىٰ اعتبار أنّ الذهب دوما من نصيب العواصم والفضة والنحاس لغيرها من المدن مهما كبرت، وبحسبان العواصم عقل البلاد وقلبها النابض، بينما بقية المدن كاليدين والرجلين.

في الطريق لركوب السيارة من الموقف المتواضِع أيضا، سألني كِيلا: هل تحبّ رجال الشرطة؟ لم أفهم مغزىٰ سؤاله، فأجبتُه بدبلوماسيّة تتوخّىٰ إمساك العصا من المنتصَف: فيهم الجيّد وفيهم السيّء، وهكذا كلّ المهن يا صديقي. لاحقًا، عرفت أنه رجل بوليس عتيد عمل بالشرطة الجورجية سبعة عشر عاما، هذه الشرطة التي أعجبني زيُّها، قميص أسود به خطّان زاهيان علىٰ الأكتاف، وأعجبني أكثر مبانيها ذات الواجهات الزجاجية التي تُوحي بالشفافية والنزاهة، وقام علىٰ بنائها رئيس الوزراء ساكاشفيلي عقب بروزه في ثورة الزهور عام ٢٠٠٣ وتولّيه سدّة الحكم في انتخابات عام٢٠٠٤، وكان البوليس هو أكثر الميادين التي تعرَّضت لإصلاح جذري، إذ تمّ بموجب هذا الإصلاح تسريح ١٨٠٠٠ شرطي جلّهم من الشرطة المرورية المرتشية، وتعيين شرطيين جدد في قرار ثوري نصحه

الكثيرون بالحدّ من غلوائه وكبح جماحه، ولكنه فضّل الشرطي النظيف قليل الخبرة علىٰ الشرطي الفاسد الخبير.

عقب استقالته من الشرطة، ومع الطفرة السياحية والانتعاشة الاقتصادية التي شهدتْها جورجيا، خاصة ما بين عامَي ٢٠١١، ٢٠١٩ والتي تضاعف فيها عدد السياح بمقدار ٣٥ مرّة..اختار كيلا العمل كسائق لدىٰ الشركات والأفواج السياحية، ولو انفتح علىٰ اللغة الإنجليزية إلىٰ جوار الروسية والجورجية اللتيْن يجيدهما إجادة تامة ككلّ الجورجيين، لبات مرشدا سياحيا وخدم مهنتَه كسائق، فكم وقفَت الأسئلةُ في حلقي لأن بينه وبين الإنجليزية حجابا، وكم تلعثم لسانه في العثور علىٰ معنىٰ يريد إيصاله إليّ، وكان المنقذ موقع الترجمة الفورية من العربية إلىٰ الروسية سواء كتابةً أو صوتا! ولهذا كانت شريحة الإنترنت اللامحدود التي تسلّمتُها من الشركة فور وصولي ذات أهمية بالغة في التواصل معه..

وحتىٰ الكلمات الإنجليزية التي يتنزّل عليه وحْيها بعد عناء، يَصعب عليك فهمها لأوّل وهلة، بل عليك أن تديرها في رأسك دورتيْن قبل القبض علىٰ معناها ومدلولها، من ذلك نطْقه لكلمة بَاص(bus) بُوص، ولكلمة مِينِيت(minute) مِينُوت، ولكلمة

سُوبَر (super) سُوبِير، ولكلمة جِيسْت (guest) جُوِيسْت، ممّا يدلّ على أنه ينطق الكلمات كما تُكتب لا كما تُلفَظ، وتشير إلىٰ أن هذا القدر الذي تعلّمه كان اجتهادا شخصيا بدون معلّم.

ومع هذا، فقد أنقذني بالترجمة في بعض المواقف؛ إذ دخلْت ذات يوم صيدلية أشتري منها دواءً لألمٍ بالحلق ألمّ بي نتيجة الأجواء الباردة في بوكاريانى أو ربّما جرّاء شربة ماء مثلّجة، ولم أشكّ لحظة أنّ الصيدلانية ستخذلني وتهزّ رأسها ذات اليمين وذات الشمال كالهنود مُعرِبة عن جهلها التام بالإنجليزية وتطلب منّي مترجِمًا إلىٰ الجورجية! وهو ما تكرَّر في صيدلية أخرىٰ قصدتُها لشراء بخّاخ لأنفي المسدود بفعل حساسية مزمنة، ولكن هذه المرّة تلعثمَت الصيدلانية واستعانت بزميلة لها تتحدّث الإنجليزية. وهذا لا يعني أنهم متعصّبون للغتهم كالألمان الذين لا يتسامحون في التحدُّث بغيرها، مع أنها كما نعلم لغة صعبة قال عنها الكاتب الأمريكي الساخر مارك توين: علينا أن نصنّف اللغة الألمانية كلغة ميتة، فالموتىٰ فقط يملكون ما يكفي من الوقت لتعلّمها.

أحد الشوارع القريبة من المطار والتي مررْنا بها في طريقنا إلىٰ الفندق، هو شارع جورج بوش، المزدان بصورة لهذا المجرم الأكبر

تضيء ليلا كصور الراقصات علىٰ أبواب الكازينوهات[1]، وكان وراء التسمية رئيس الوزراء ميخائيل ساكاشفيلي عقب تلبية بوش لدعوته بزيارة جورجيا عام ٢٠٠٥، في حدث استثنائي لا شكّ أثار حفيظة روسيا ولم تنساها له، إلىٰ أنْ أغارت عليه في ٢٠٠٨، محتلّة المزيد من الأراضي الجورجية، ومتهمة إيّاه بالانبطاح علىٰ عتبات الغرب وجرّ جورجيا إلىٰ أحضان أوروبا وأمريكا، ولا أستبعد اليد الروسية فيما يلقاه اليوم من سجْن وتنكيل رغم مظاهر الحداثة التي أضافها إلىٰ جورجيا إبّان دورتيه الرئاسيتيْن. وبناءً علىٰ توصية خاصة ومباشرة من الرئيس بوش أثناء انعقاد مؤتمر حلف الناتو عام ٢٠٠٨، مُنحت جورجيا صفة العضو المرشَّح بدءا من عام ٢٠١١.

ومن نافذة سيارة السيد كيلا، وعبر التحديق في السيارات علىٰ اليمين واليسار والأمام، رأيت عددا لا بأس به يحمل اللوحات الروسية المميّزة بالعلامة RUS علىٰ يمين الرقم، وأخرىٰ باللوحات الأرمينية المميّزة بالعلامةAM، وثالثة باللوحات التركية المميّزة بالعلامةTR، وكذلك لوحات كازاخستان المميّزة بالعلامة KZ،

(١) نظرا لانتشار كازينوهات القمار في باتومي، يشبّهها البعض بمدينة القمار في أمريكا لاس فيجاس، ويلقّبونها بلاس فيجاس البحر الأسود .

واللوحات البيلاروسية المميّزة بالعلامةBY، إضافة إلىٰ السيارات الجورجية المميّزة بالعلامة GE، وهذه الأخيرة لو كُتبت في ملفّ طبّي فإنها تعني النزلة المعوية. ومن هذه الفسيفساء للوحات السيارات يمكننا معرفة دول الجوار وتحديد مكان جورجيا علىٰ الخريطة، إذ تفصل غرب آسيا عن شرق أوروبا، وتبلغ مساحتها ٧٠٠٠٠ كم٢، وتحدّها روسيا من جهتَي الشمال والشمال الشرقي، بينما تجاورها أرمينية وتركيا من جهة الجنوب، وأذربيجان من جهة الجنوب الشرقي، والبحر الأسود من جهة الغرب، بحدود برّيّة تبلغ جميعها ما يقارب١٤٦١ كم، منها ١٦٤ كم مع أرمينية، ٣٢٢ كم مع أذربيجان، ٧٢٣ كم مع روسيا[1]، ٢٥٢ كم مع تركيا، بينما تبلغ حدودها البحرية ٣١٠ كم.

(١) هذه الحدود البرّيّة الشاسعة مع روسيا، تجعل جورجيا من ناحية الجغرافيا السياسية مهمة جدا بالنسبة للرُّوس وإن كانت دون أوكرانيا، ولا ننسى أن جورجيا هي طريق روسيا البرّي إلى تركيا وإيران والعراق، بمعنى أنها ستظل في نظر الرُّوس حديقة خلفية لا تسمح للغرب بالاقتراب منها .

وهذا الموقع الجغرافي الاستراتيجي الفريد جعلها بوابة آسيا إلىٰ أوروبا ومنفذ أوروبا إلىٰ آسيا، ووضعها في بؤرة اهتمام الامبراطوريات للاستحواذ عليها علىٰ مرّ الزمن، ولذلك مرّ بها الغُزاة من كلّ شكل ولون؛ يونان، رومان، مغول، تتار، فُرس، أتراك، ورُوس، وأغلب الغزو كان يأتيها من قبل حدودها الشرقية المفتوحة، بينما حصّنتْها الجبال في الشمال والجنوب، وتكفّل البحر بتأمينها من جهة الغرب.

وأكثر السيارات الجورجية –حسبما رأيت– هي سيارات يابانية الصنع، تأتيهم عبر روسيا وكازاخستان، وأغلبها تويوتا من فئة ريوس، وأكوا، وفيز، وكامري. وأعجبني بشدّة غياب نفير السيارات، علىٰ العكس من الضجيج الذي يصمّ الآذان في مصر ويعتبره البعض دليلا علىٰ الحيوية وما أراه إلّا عداءً للحياة. كما أعجبني الالتزام الذي يبديه السائقون تجاه قانون المرور، وكذلك الحالة الجيّدة للسيارات، فلا هي بعوراء تخرج من مؤخّرتها عوادم تدلّل علىٰ سقم المحرّك ورداءة البترول، ولا مرقّشَة كجلد النمر من كثرة ما يصيبها من خدوش وسحجات وكدمات.

ولأن أرضها ضنينة بالنفط، بل تستورده غالبا من روسيا ورومانيا؛ فإنّ سعر اللتر منه يبلغ دولارا، إذ انعطفْنا ذات مرّة إلىٰ محطة للوقود واشترينا ٣١ لترا بمبلغ ٧٤ لاري، وهو سعر باهظ التكلفة في دولة ليست ثرية كما قد يعتقد البعض؛ إذ يعمل الكثير من الجورجيين في أوروبا خاصة إيطاليا، والجزء الأكبر منهم نساء يقمن علىٰ تدبير المنازل والعناية بالأطفال ورعاية المسنّين.

وخلافًا لمظهر محطات البترول المعتادة في ساحات واسعة ذات مداخل ومخارج، لمحْت من نافذة سيارة كيلا الذي تَفضّل بمنحي عجلة قيادتها لنحو ٧٠ كم علىٰ طريق باتومي تبليسي، بعض المحطّات الصغيرة داخل العاصمة، قوامها ماكينة ضخّ واحدة أو اثنتان تصطفان علىٰ حافة الشارع مباشرة، بحيث تتوقّف السيارة علىٰ جانب الطريق أثناء مرورها، وتملأ خزّانها دون الانعطاف ذات اليمين أو اليسار.

ومن الطريف، أننا توقّفنا في الطريق أمام باب أحد المحال التجارية لشراء بعض الأغراض، وبعد انتهائي من مهمّة الشّراء ومغادرة المحلّ، فتحْت باب السيارة وجلست في مقعدي بجوار

السائق وأغلقْت الباب، وبينما ألتفت إلىٰ اليسار قائلا: kela (go)، إذ بي أكتشف أنّني ركبت سيارة أخرىٰ من الطراز واللون نفسه! وكم كان صاحبها وزوجتُه لطيفيْن حين اكتفيا بالابتسام دون سوء ظنّ أو توبيخ، بينما هرولْت وفي جيبي طنّ من الخجل باحثا عن السيّد كِيلا وسيارته التي حرّكها من مكانها أمام باب المحلّ لسبب ما ، وعلىٰ هذا الموقف ضحكْنا حتىٰ بلّل الدمع العين.

والحقّ أنّ الجورجيين أقرب إلىٰ جدّيّة وجفاف البريطانيين، وأبعد عن دفء وودّ وخفّة روح شعوب البحر الأبيض المتوسط كمصر وفرنسا واليونان مثلا، وإن كان مَن تعاملت معهم –وهم قلّة– قد أبدوا بعضا من لُطف الضيافة التي يتطلّبها بلد سياحي، علىٰ اعتبار أنّ السياحة ضيافة وثقافة قبل أن تكون اقتصادا وتجارة؛ فهذه التسعة أيام كانت كافية لكي يحكي لي السائق الكثير عن ولده لوقا المُجيد للعب كرة السلة وعن ابنته مريم خرّيجة الجامعة العاملة، وهي أسماء كما ترىٰ تدلّ علىٰ التزامه المسيحي، وهو التزام واضح في مجمل جورجيا، ويدلّ عليه علم الدولة المشبَع بالصلبان، وانتشار الكنائس، وغلبة اسم مريم وجورج بين أسمائهم قاطبة. بل إنه حكىٰ لي عن زوجته التي تعمل ثلاثة أيام في الأسبوع من التاسعة

صباحا إلىٰ الحادية عشرة مساء، وزاد فأهداني غطاء رأس أنيق (كاب) باللون الأسود الذي يفضّله بعدما اعتاده سنين عددا في خدمة شرطة تخدم الشعب، وكم تَفضّل غير مرّة بشراء آيس كريم بالفانيليا لابنتي الصغيرة. كما استغلّ الفرصة واشتكي لي من آلام في القدم خمّنْتُها جرس إنذار الإصابة بالنقرس، وطلبت منه إجراء بعض التحاليل وخفْض وزنه الذي لا يقلّ عن مائة كجم ولا يشفع له طولٌ فارع يزيد عن المائة وثمانين سنتيمترا.

وبالطبع وقفْت علىٰ شيء من تصرّفات فردية تخرج عن السياق، فالحلْو –علىٰ رأي المثل– لا يكتمل؛ ومن ذلك أننا في طريق عودتنا

الطويلة من مدينة باتومي إلىٰ تبليسي في يومنا قبل الأخير، وهي رحلة بلغت أكثر من سبع ساعات نظرا لطول المسافة البالغة نحو ٣٧٥كم وتموّجات الطريق الجبلي في بعض أجزائه، توقّفْنا علىٰ يمين الطريق أمام أربع محلّات متجاورة لبيع العسل الذي تشتهر به جورجيا – وخاصة مدينة بورجومي– تماما كشهرة السعودية بالتمور والهند

بالتوابل والصين وكينيا بالشاي، وكالعادة كانت البائعات من النّساء الضاربات بسهم وافر في سوق العمل الجورجي بصفة عامة، وبينما بين الأنواع نُفاضِل وفي الثمن نُفاصِل، إذ بالبائعة المجاورة للمحلّ الذي وقع عليه اختيارنا تزمجر كأسد هصور وتطلق لسانها كمدفع رشاش سريع الطلقات، وفهمْنا من نبْرتها الحادّة وإشارات يدها المتشنّجة أنها ربّما تقول: كيف تُوقِفون سيارتكم أمامي وتشترون من غيري؟! والله إنّكم لحمير لا تفقهون في الإتيكيت، عليكم لعنة القدِّيس جورج.. ولمّا تناقشْت مع السائق حول تطييب خاطرها بشراء شيء منها مخافة إصابتها بذبحة أو جلطة، قال: دعْك منها، لا مشكلة..

وقد علّمتني هذه السيدة الغاضِبة كالخريف والمزمجرة كأمشير، أنّ البشر وإن اختلفَت ألسنتُهم ونأت بهم الأقطار، متشابهون في غضبهم ونزَقهم، وتذكّرْت مقولة الكاتب عمّار علي حسن في سيرته الذاتية: علّمتْني الأسفار أنّ كل الناس لآدم، أفراحهم وأتراحهم واحدة أو علىٰ الأقل متشابهة، كما علّمتْني أن ألتقط المعرفة من أفواه الناس مثلما ألتقطها من بطون الكتب.

ومن ذلك أيضا، أنّني وأثناء إخلاء ذمّتي من فندق ريزيدنس بلازا في تبليسي القديمة، استعدادا للمغادرة النهائية إلىٰ المطار، وجدت سائحا عربيا أظنه سعوديا يُناقش بغضب موظّف الاستقبال متّهما عامل الغرف بسرقة ستّ عبوات من المكرونة سريعة التحضير والمعروفة بالإندومي! والله أعلم بالحقيقة.

وداهية الدواهي، أنّ صديقا عمانيا سبقني بزيارة جورجيا قبل بضعة أشهر، وأخبرني آسفا أنه أراد استئجار بيت في الريف ليوم أو يومين؛ تلفّه الخضرة كالطوق، وغارق في الهدوء حتىٰ لا تكاد تسمع سوىٰ خرير الماء وزقزقة العصافير وثغاء الأغنام وخوار البقر وصهيل الخيول، وصالح تماما لإلهام الأدباء والفنّانين.. ولكنه وبعدما طالع البيت وأعجبه، فُوجئ برفض صاحب البيت الذي قال: لا أُؤجّر لعرب! ويبدو أنّ هذا المالك اللئيم لم يسمع بمثَل جورجي يشيع علىٰ لسان كبار السنّ منهم حين يعبّرون عن الشيء الفائق الجمال فيقولون: إنه جميل مثل العرب..

والبيوت الريفية كما تراءت لي علىٰ جانبَي الطريق؛ متفرّقة كجزر منعزلة أو دول مستقلّة، ومن طابقيْن اثنين لا أكثر، وسقفها هرمي

الشكل مغطّىٰ بالقرميد علىٰ الطراز الأوروبي. ولو قُدّر لي العودة إلىٰ جورجيا، لكانت وجهتي هي هذه البيوت الريفية التي تستحقّ شهقةَ التعجُّب وعلامةَ الجمال الكاملة، خاصة بعدما علمْت أنّ إيجار الأسبوع نحو مائتَي دولار فقط.

ولأيّام قبل انتهاء رحلتي التي قطعنا فيها بالسيارة ١٧٠٠كم من مبدئها في مطار تبليسي إلىٰ منتهاها علىٰ عتباته أيضا، كان العمّ كِيلا –عمره ٤٩ سنة–يعتقد أنّني قادم من المملكة العربية السعودية، فكلمة العرب عنده تعني أوّل ما تعني السعودية، أمّا سلطنة عمان فلم يسمع بها أبدا من قبل! وله الحقّ في هذا الاعتقاد، لأنّ السياحة السعودية إلىٰ جورجيا تمثل حسب إحصاءات رسمية ٦٨٪ من مجمل السياحة العربية، وفي عام ٢٠٢٢م فقط زار جورجيا حوالي ١٢٠ ألف سائح سعودي..

وبهذا كان لزامًا عليّ أن أُعدّد له دول الخليج الستّ، وأوضّح له الفرق بين فئتين من العرب، الفئة الثرية المتمثّلة في دول الخليج، والفئة الأخرىٰ المتمثّلة في بقية الدول العربية التي تصارع من أجل البقاء وغاية أملها العيش الكريم. وجيّد أنه يعرف مصر، وله أصدقاء

يذهبون إليها كسيّاح، وإن كان يعتقد كبعض الغربيِّين الحاقدين أنّ الأهرامات ليست من صنع بشر ولكنّها من إبداع كائنات فضائية!

بل إنه علىٰ إلمام بقضية فلسطين وإسرائيل صديقة جورجيا الحميمة وحليفتها الاستراتيجية، وأكثر من مرّة صادفني سيّاح من بني إسرائيل بطاقية الرأس المُسمّاة الكيباه أو الكِبة والمميّزة لهم؛ ذلك أنّي لمّا سألتُه: كيف تحتلّ روسيا بلدكم، بينما العلاقات السياسية والاقتصادية والسياحية بين البلدين كالسمن مع العسل والشاي مع الحليب، فأجاب: إنها السياسة يا عزيزي، ألا يتوافد الإسرائيليون علىٰ البلاد العربية رغم احتلالهم لفلسطين؟!

ولأنّ فكرة السفر قائمة علىٰ التعرُّف إلىٰ الآخر، وغاية الحياة تحقيق الشعار الإلهي (لتعارفوا)؛ فقد اكتسبْت صداقات جديدة دامت لما بعد الرحلة، كشيخ مسجد تبليسي، وبعض أعضاء فريق الشركة السياحية، وبالطبع السائق. بينما اكتسبَت زوجتي وابنتي صداقة ياسمين، تلك المضيفة المصرية الودودة والكريمة التي صحبتْنا في رحلة طيران العربية من الشارقة إلىٰ تبليسي.

مدينة المياه الدافئة

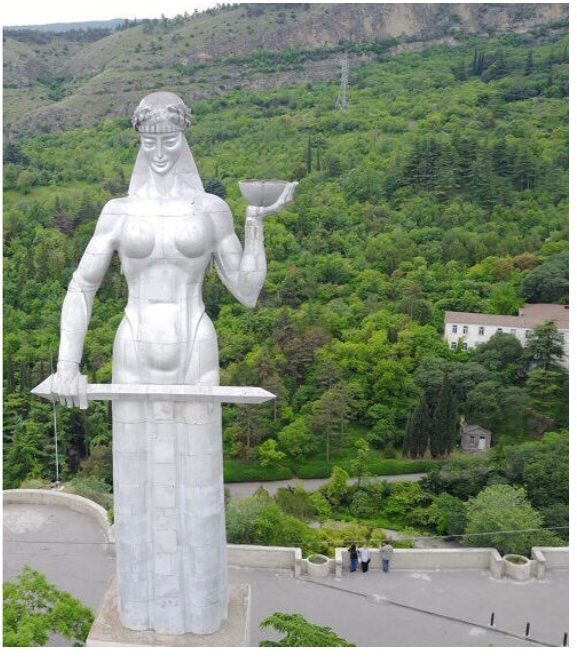

تمثال أم الجورجيين-تبليسي

مهما حفلَت العواصم بالزحام والضجيج، ومهما فاقتها مدنٌ أخرىٰ في الجمال والهدوء، فلا بدّ من زيارتها والتوقيع في صفحتها، إذ هي للدول بمثابة الرأس للجسد.. وهكذا كانت العاصمة تبليسي أوّل محطّتنا في جورجيا، بل واستأْثرت بنصيب الأسد من رحلتنا، إذ مكثْنا في رحابها أربعة أيام، كانت لنا في جورجيا بمثابة البوّابة للبيت والغلاف للكتاب والأذان للصلاة.

وأوّل ما يلفت نظرك فيها، نهر كورا الذي يمثّل الشريان في جسدها والقلب في صدرها، ولو نُزع منها هذا النهر لفقدت نصف جمالها وثلاثة أرباع سحرها. وعلىٰ شرف مياهه الهادئة الصافية كالبلور، استأجرنا قاربا جماعيا رافقَنا فيه عشرةُ سيّاح أجانب ليس فيهم عربيّ واحد ممّن لمحتُهم يجرّون حقائب منتفخة كبطون الحوامل في المطار والفندق، وعلىٰ أنغام موسيقىٰ حالمة لا أدري ما كنْهها، راح القارب يتهادىٰ علىٰ صفحة النهر كما تتهادىٰ الغِيد من الفتيات في قاعات الأفراح وليالي الأعراس علىٰ أمل اصطياد زبون يصلح عريسا، تارة يتوسّطه لترىٰ التاريخ يطلّ عليك من أعالي المدينة القديمة علىٰ إحدىٰ الضفّتين، بينما تشمخ وتتلألأ المباني العملاقة الدالّة علىٰ الحداثة في الضفة الأخرىٰ منه. وتارة يقترب بك

من حافّته لتكتحل عينك بالأشجار المُورقة الخضراء وتشنّف أذنك بتغريد الطيور المائية في أصواتها العذبة البهيّة، ومنها ميّزْت أعدادا غفيرة من النوارس صديقة الماء علىٰ الدوام.

أربعين دقيقة كان عمر تلك الرحلة النهرية التي نشبت بالذاكرة، مرّرْنا فيها تحت واحد من الجسور المعلَّقة والمشيَّدة لعبور المشاة والسيارات، واقتربْنا للغاية من جسر السلام الزجاجي الشهير والعجيب، وكان ختامها بأكواب من الشاي الجورجي الساخن أهدتْه إلينا مريم، تلك الفتاة الجورجية المرحة ضمن طاقم تأجير المراكب.

وللشاي الجورجي حضور وحظوظ يعرفها الملايين من عشّاق الشاي علىٰ مستوىٰ المعمورة، فالتربة الحمضية والأجواء الرطبة الماطرة والتلال المرتفعة المتوفّرة خاصة في المنطقة الشمالية الغربية القريبة من البحر الأسود، هي أجواء مثالية لزراعة هذا المشروب العتيد، ومنه الأسود والأخضر، ولا فرق بينهما من حيث المصدر؛ فالشجرة واحدة ولكن تقنيات التصنيع هي التي تسفر عن اختلاف اللون والطعم. وبينما كانت جورجيا علىٰ رأس منتجي الشاي

للمزاج السوفيتي، إذ بها تتراجع بعد الاستقلال وتجاهد الآن للعودة إلىٰ الحلَبة. وكم وددْت لو زُرت مزارعها أثناء رحلتي، ولكن ليس كلّ ما يتمنّاه المرء يدركه، ولا بدّ للمرء من أمنيات مؤجَّلة لكي يظلّ علىٰ موعد مع المستقبل وحبّ الحياة.

وفي استطراد يسير عن الشاي، أنقل هذه السطور من مقالٍ لصاحب الرسالة أحمد حسن الزيات، نُشر عام ١٩٣٣، وجاء فيه: "والشاي أوراق شجيرات لا يكاد يزيد ارتفاعها علىٰ متر ونصف المتر، تظلّ خضراء طول العام، فلا تعرو في الخريف، تحمل وريقات صغيرة، يتراوح طولها بين خَمس السنتيمترات والعَشْر، لها شكل كسنان الرمح، وحرف ذو أسنان. وتُزرع تلك الشجيرات فلا يُقطف منها شيء في العام الأوّل، فإذا حانت السنة الثانية تهيأت وريقاتها للقطاف، ويزداد المقطوف منها بتتابع الأعوام. ولما كانت تُزرع لورقها، لا لخشبها أو ثمرها، كان لا بد من تقليم أفرعها، كي لا تطول مُصعِدَة، وينتج عن هذا خروج أفرع جديدة من جوانب الأفرع المقلَّمة، أفرعٌ تكتسي كلّها بالورق فيَكثر المحصول من الأوراق.

وبعد قطف الأوراق تنشَّر علىٰ حصر لتجفّ وتذبل، ثم تدرج وتبرم باليد في ضغط علىٰ أسطح من الخشب، والقصد من ذلك تكسير الخلايا لتجود بزيتها العطري، فتطيب رائحته. ويَعقب ذلك عملية الاختمار فتُعرَّض الأوراق لدرجة حرارة تتراوح بين ٣٥، ٤٠ درجة مئوية، فتتحوّل من اللون الأخضر إلىٰ الأصفر، ثم يقتمّ لونها اقتماما، وذلك بسبب الخمائر التي فيها، فهي تؤكسد بعض حامض التنيك الذي بالورق، فتستحيل إلىٰ مادة ذات لون قاتم تكسب الشاي لونه المألوف. وعملية الاختمار هذه من الأهمية بالمكان الأوّل، وعلىٰ إجادتها تتوقّف جودة الشاي.

أمّا الشاي ذو اللون الأخضر الذي يُباع في الأسواق، فيحضَّر بطريقة كطريقة الشاي الأسود الآنفة، غير أنه يحمَّص قبل تخميره في أوعية تسخن بالغاز تسخينًا هينًا، وهذا التسخين يقتل بعض تلك الخمايز التي كانت سببًا في أكسدة حامض التنيك، وفي إحداث اللون القاتم، فإذا تخمّرت الأوراق بعد ذلك، قامت بالتخمير بقية الخمائر التي لم يقتلها التسخين، ولهذا يظل الشاي حافظًا لشيء من اخضراره الأوّل وانفتاح لونه".

وبالعودة إلىٰ رحلتنا، وفي مثل تلك اللحظات الحالمة وسط النهر والهدوء والنسيم العليل، قد تنسىٰ نفسَك وتأتي من الأفعال ما ينافي العقل ويوافق الخيال، ومن ذلك أنّي تودّدتُ إلىٰ سائق القارب ليمنحني فرصة قيادته بعدما راقبتُه ورأيته لا يفعل أكثر مما نفعله في السيارة! وهو ما رفضه بهزّة حاسمة من رأسه الكبيرة المربَّعة.

وجسر السلام هذا آية في الفنّ، وبدعة في الهندسة والإنشاء، شيّده المهندس الإيطالي ميشيل دي لوتشي عام ٢٠١٠ علىٰ هيئة مَمشىٰ يعلوه قوس من زجاج صلب ملوّن أضاف إلىٰ جماله الأخّاذ قوّةً ومتانة، ولا سبيل لعبوره إلّا ماشيا، أو بدرّاجة هوائية، وأجمل ما يكون العبور في الليل حين تسطع إضاءةٌ مبهرة صمّمها المهندس الفرنسي فيليب مارتينود باستخدام أكثر من ١٠ آلاف مصباح LED ينعكس ضوؤها علىٰ صفحة ماء النهر في منظر يفتن اللبّ ويسحر العين. وهو جسر معلَّق بين شطري تبليسي القديمة والحديثة، طوله ١٥٦ مترا، ونظرا لارتفاعه الشاهق عن سطح البحر فيمكنك الإطلال منه علىٰ المدينة والاستمتاع بمنظر بديع لحظتَي الشروق والغروب، وقيل إنّ هيكله بُني في إيطاليا ونُقل إلىٰ تبليسي في مائتَي شاحنة.

وفي منتصف العام الماضي ٢٠٢٢، افتُتح جسر زجاجي معلَّق آخَر في منطقة تسالكا علىٰ بعد ١١٠ كم غرب العاصمة تبليسي، إلّا أنه أكثر فخامة وأعظم مهابة؛ فطوله ٢٤٠ مترا، وارتفاعه ٢٨٠ مترا، يشرف السائح من قمّته علىٰ وادي داشباشي بمناظره الطبيعية الرائعة، ولعلّنا في الرحلة القادمة نتمكّن من الوصول إليه بإدراجه ضمن البرنامج، مع وعد بعدم ركوب الدراجات الهوائية علىٰ المسارات المعلَّقة الموازية لهذا الجسر الخرافي الذي استغرق بناؤه نحو ثلاث سنوات بتكلفة إجمالية وصلت أربعين مليونا من الدولارات! وهذه الجسور الزجاجية ذات المَمشىٰ الشفّاف، تستدعي قصة نبيّ الله سليمان مع ملكة سبأ، وتذكّرك بقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[1].

وعلىٰ بعد خطوات من جسر السلام كان موعدنا مع أرخص تليفريك[2] في جورجيا، وبه عبرْنا بين ضفّتَي النهر في دقائق

(١) النمل ٤٤.

(٢) قاطرة معلَّقة تعمل بالكهرباء وتسير على كوابل ثابتة، تُستخدم كوسيلة نقل في المناطق الجبلية وأيضا للترفيه في كثير من البلدان .

معدودات، ثم وصلنا مشْيًا علىٰ الأقدام إلىٰ تمثال أُمّ الجورجيين أو (كارتليس ديدا).. وكارتليس تعني الجورجيين، وديدا في لغتهم تعني أُمّ، بينما ماما تعني أب، ولا أدري كيف ينادي أحدُهم أباه بقوله: يا ماما. وهو تمثال فاخر شامخ، عليك أن تثني رقبتك لأقصىٰ الخلف حتىٰ تتمكّن من رؤية قمّته. صمّمه النحّات الجورجي Elguja Amashukeli عام ١٩٥٨م من الألومنيوم، بطول عشرين متراً فوق قمّة تلّ سولولاكي، واختار له هيئة امرأة قوية فارعة القوام كالنساء الأفريقيات والأمازونات، ترتدي الزيّ الوطني الجورجي، وجْهها صوب النهر وظهرها إلىٰ المدينة القديمة. وفي دلالة رمزية، وضع النحّات في يدها اليسرىٰ وعاء من النبيذ لاستقبال أولئك الذين يأتون كأصدقاء، وفي يدها اليمنىٰ سيفا مشهَرًا في وجه أهل الشرّ من الأعداء. وهذا التمثال واحد من مئات التماثيل المنثورة في شوارع وميادين وحدائق العاصمة، بل في شوارع وميادين جورجيا بكاملها، وذلك علىٰ طريقة الغرب في تخليد زعمائه، ولكنها تلفت نظرك هنا من كثرتها، ولا ينافسها في تلك الكثرة سوىٰ عدد الكنائس التي أينما ولّيتَ وجهَك فثمّة كنيسة يعلوها صليب.

والحقّ أنّي وعلىٰ عكس ابنتي وزوجتي، كنت متهيّبا من ركوب هذا التليفريك كما تهيّبْت الزيبلاين من قبل في بحيرة السلاحف حين حسبْته مقامرة أشبه بالمشي في حقل مزروع بالألغام، ولكنّي هنا وجدته آمنًا وجذّابا، ربّما لأنهم وعلىٰ عكس الزيبلاين يتحكّمون في سرعته وبالتالي يتهادىٰ في سيْره رويدا رويدا دون اندفاع مباغت يقفز بضربات قلبك إلىٰ ما فوق المئة كأنّك تُساق إلىٰ المقصلة. ولهذا كرّرْت التجربة مرّة أخرىٰ بركوب تليفريك باكُورْياني الأطْول والأجمل، والذي تقع محطّته مباشرة في جوار فندق كريستال الذي نزلْنا به، إذْ سار بنا مسافةً مديدة داخل الغابة وسط أجواء باردة غائمة ماطرة مفعَمة بالخيال والضباب، حتىٰ ودّنا ساعتها لو نسينا الزمن ورحنا نتأمّل في الأفق المطلَق، ونقرأ مفرداته قراءة عميقة نستكشف من خلالها سرّ جماله ونفتّش عن خبيئة كنوزه، فكم في الغابات من أسرار، وخلف كلّ سرّ نكتشفه لذّة حسّيّة

وأخرىٰ معنويّة. وليتنا اخترْنا مسار المحطتيْن وهو الأطول، رغم أنّ مسار المحطّة الواحدة كافٍ جدّا للاستحمام بالمتعة والاستجمام بالسكينة.

هذا لا ينفي تأفُّفي من شاب وفتاة وقفا خلفنا في طابور انتظار ركوب تليفريك العاصمة، فبينما نتحدّث أنا وزوجتي كإخوة وأصدقاء، راحا يتباوسان[1] في لهفة وحرارة كأنهما عاشقان علىٰ سرير التقيا لتوّهما بعد غياب دهر، ومن ذلك كثير في جورجيا، وكم في تبليسي من أباليس! وفي محاولة فاشلة لحُسن الظنّ، يمكن القول أنّ الفتاة الرقيقة كانت ترتعد خائفة من ركوب التليفريك فلم يجد الفتىٰ الشهم وسيلة لتهدئتها وطمْأنتها سوىٰ تلك القبلات الحارّة!!

وفي استطراد تاريخي مفيد؛ يُذكر أنّ أوّل مشروع لنقل الركّاب بالتليفيريك في العالم، نفّذتْه الأرجنتين في نهاية القرن التاسع عشر، وهو تليفيريك لاريوخا الذي يسير في الهواء علىٰ سلك فولاذي بين محطّتيْن فرق الارتفاع بينهما ثلاثة آلاف وأربعمائة متر (٣٤٠٠م)،

(١) بَوْسَة، تعني قُبلة، وهي كلمة مُعرَّبة ذات أصل فارسي .

والمسافة بينهما أربعة وثلاثون كيلومترا[1]. وفي شهر أغسطس الجاري ٢٠٢٣ طيّرت الصحف خبر حصار سبعة طلّاب باكستانيّين مع معلّمهم داخل عربة تلفريك معلَّقة علىٰ ارتفاع ٢٧٤ مترا بعد انقطاع أحد السلكيْن الحامليْن للعربة، وسعت السلطات بكل جدّ لإنقاذهم عبر طائرتَي هليكوبتر عسكريتيْن وسط رياح عاتية فوق الوادي السحيق شمال إسلام آباد.

بعد العودة من الضفة الأخرىٰ لنهر كُورا بواسطة التليفريك أيضا، أسعدني القدر بزيارة متحفيّة رائعة لم تكن مُدرَجة في البرنامج ولا دراية للسائق ولا للشركة السياحيّة بها، إذ تعثّرْت فيها أثناء بحثي عن حمّام في منتزَه الأوروبيين المجاور لمحطّة التليفريك والمتخَم بمقاعد خشبية مريحة ونوافير هادرة تبعث علىٰ النشاط. وكانت الزيارة لمتحفٍ للفراشات والشمع مكوَّن من ثلاثة طوابق، تضم إلىٰ جانب أنواع عدّة من الفراشات تحتلّ أغلب الطابق الثاني، مجسّمات شمعية لزعماء سياسيين وفنّانين وممثّلين من جميع أنحاء العالم (مايكل جاكسون، جون كيندي، مارلين مونرو، شارلي شابلن،

(١) قلوب على الأسلاك، د. عبد السلام العجيلي.

سلفادور دالي، بيكاسو، ألفيس بريسلي، جاكي شان، ليدي جاجا، أنجيلا جولي، براد بيت، وغيرهم)، وهو ما ذكّرني باثنين من أقدم متاحف الشمع في العالم؛ متحف مدام تاسو بلندن، ومتحف جريفين في حي مونمارتر بباريس.

وجنبا إلىٰ جنب مع هذه التماثيل، كانت لنا جولة مثيرة في متاهة ظريفة بالطابق الثالث، يسمّونها متاهة المرايا (mirror maze)، ترتدي لها قفّازين قبل الدخول وكأنّك ستجري عملية جراحية، وهي عبارة عن عشرات الحوائط من الزجاج المصقول الشفّاف، وإضاءة خافتة ملوّنة، ودهاليز وممرّات بعضها مغلَق وبعضها مفتوح، وعليك أن تدخل من باب وتخرج من باب، وبين هذا المدخل وذاك المخرج عليك أن تتلمّس الحوائط الزجاجية بيديك لتشقّ طريقك بأمان بعدما تعطّلت كافة الحواس دون حاسة اللمس، مع الحذر من اصطدامك بالمرايا.. وكم حبسْنا خلالها أنفاسَنا من الدهشة والإثارة وبعض الوجل، ولم يخلُ الأمر من ضحكات بل وقهقهات دوّت من فم طفل يقبع داخلنا نحن الكبار ويجد متنفَّسا له في مثل هذه الألعاب الترفيهية التي نهملها ونتعالىٰ عليها دون وجه حقّ.

والجيّد في هذا المتحف؛ أنه كان خاليا تماما من الزوّار، ولا مجال للقياس مع أكبر متاحف العالم في فرنسا، وهو متحف اللوفر الذي يستقبل ثمانية ملايين زائر سنويا. أمّا غير الجيّد؛ فكان تواضع معلومات مشرفة المتحف، إلىٰ درجة جهلها بأسماء بعض الشخصيات الشمعية المنتصِبة وسط المتحف. وأظنّ أن وجود المتاهة جنْبا إلىٰ جنب مع الفراشات العتيقة والشخصيات التاريخية، نسف مقولة جمال الغيطاني: "إنّ المتاحف تنوب عنّا في عرض حاراتنا القديمة"، إذ أصبحَت الحارات الحديثة أيضا موضوعا للمتاحف كما رأينا..

وعلىٰ ذكر المتاحف؛ لك أن تضحك علىٰ الكيان الصهيوني الغاصب الذي يرسّخ وجوده في فلسطين المحتلّة بزرع المتاحف في كلّ مكان، حتىٰ أنّ لديه أكبر كَمّ من المتاحف في العالم مقارَنة بحفنة الملايين من سكّانه، فعددها مائتي متحف، أربعون منها رسمية، والبقية غير رسمية، وفي مدينة القدس وحدها سبعون متحفا، وكأنه امبراطورية ضاربة في أعماق ما قبل التاريخ، وهو هراء ما بعده هراء!!

وعن التاريخ البعيد للمدينة الدافئة تبليسي، وقصة تتويجها كعاصمة لجورجيا؛ تقول الرواية أنّ ملِك مملكة إيبيريا (جورجيا الشرقية) فاختانغ الأوّل زمن القرن الخامس الميلادي، ذهب في رحلة صيد وسط غابة شاسعة، وأثناء الرحلة فقَد صقرَه الذي يصيد له، وعقب بحث نشيط قامت به الحاشية، وُجد الصقر مع طريدته في بركة ماء تغلي وحولها عيون ماء حارّة تفجّرت من ينابيع وسط الغابة المحاطة بجبال القوقاز، ولمّا كانت تضاريس المنطقة وجغرافيتها مناسبة لمدينة محصَّنة من غارات الأعداء المتتالية، قرّر نقل عاصمة مملكته من متسخيتا التي تبعد خمسة وعشرين كيلومترا إلىٰ هذه المنطقة العجيبة من المياه الدافئة، وهو ما تحقَّق بالفعل في عهد خليفته وابنه داشي الأوّل. ولكنها لم تصبح عاصمة جورجيا الموحَّدة بشطريها الشرقي والغربي، إلّا في عهد الملك دافيد أغماشنبيلي (دافيد الرابع)، بعدما استعادها من السلاجقة عام ١١٢٢م. ودافيد المؤسِّس أو الباني كما يسمّونه، ينتمي إلىٰ سلالة باجراتيوني حكّام إقليم جورجيا الغربية "كوتايسي حاليا"، وهو

الذي نقل حكمه إلىٰ تبليسي وتوّجها عاصمة لكافّة أقاليم جورجيا. ويُقال أنّ كوتايسي واحدة من أقدم مدن العالم وعمرها ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وتليها متسخيتا بعمر ١١٠٠ سنة قبل الميلاد.

وهناك رواية أخرىٰ أقلّ شيوعا، أَوردها الكتاب الوحيد الذي عثرْت عليه عن أدب الرحلات في جورجيا، وهو كتاب (بلاد العربية الضائعة.. جورجيا)، للكاتب محمد بن ناصر العبودي[1] والذي سجّل فيه وقائع رحلته إليها في عام ١٩٩٥، وتقول الرواية أنّ أحد الملوك الغابرين أُصيب بجرح عجز أطباء زمانه عن علاجه، فتداوىٰ بماء عينٍ حارة في هذا المكان حتىٰ شُفي، وعلىٰ أثر ذلك وقع في غرامها واختارها عاصمة لمملكته. وهذه العين الحارة وغيرها من عيون الماء الكبريتية الدافئة بغير موقد ولا نار، هي ممّا يزوره ويَستشفِي به السياح في العاصمة تبليسي حتىٰ الآن، لا سيما المصابون بالأمراض الجلدية وعلل المفاصل.

(١) كاتب ورحّالة سعودي، وُلد عام ١٩٢٦، وتُوفّي عام ٢٠٢٢، شغل منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي، ونال ميدالية الاستحقاق في الأدب عام ١٩٧٩، بعدما ألف أكثر من مائة كتاب في أدب الرحلات، إلى جانب مؤلَّفات أخرى في اللغة والسيرة والتراث .

وممّن تداووا بمثل هذه العلاجات البديلة، ولمدّة شهر تقريبا، الرئيس جمال عبد الناصر في يوليو وأغسطس عام ١٩٦٨، علىٰ أثر معاناته من آلام وخدر في القدميْن والساقيْن والفخذيْن جرّاء التدخين الكثيف ومضاعفات مرض السكّري، وذلك بمبادرة من الرئيس الروسي ليونيد بريجنيف الذي أمر بنقله آنذاك علىٰ متْن طائرة روسية إلىٰ مصحة للطب الطبيعي في تسخالطوبو الجورجية، وذلك حسبما كتب كبير أطباء الكرملين شازوف في كتابه (الصحة والسلطة).

ومن الطريف، أنّ الشاعر محمود الماحي[1]، استثمر تلك الرحلة العلاجية لعبد الناصر فألّف قصيدة قال في مطلعها: (تسخالطوبو تسخالطوبو/ كشفَت كلّ عيوبه)، ثم شخّص في القصيدة الأمراض التي فتكت بعبد الناصر كنظام وشخص فأدّت إلىٰ هزيمته النكراء في ١٩٦٧ وفاقمت علّته بتصلّب الشرايين التي سعىٰ للعلاج منها في روسيا، وهو ما لم يحتملْه عبد الناصر كعادته مع مخالفيه، فأمر بسجنه مع الآلاف وراء القضبان!

(١) شاعر مصري، وُلد في محافظة البحيرة عام ١٩٣٧، وغنت له أم كلثوم وغيرها من المشاهير، وتوفي عام ١٩٧٤، وعن سجنه كتب أحمد رائف في كتابه (البوابة السوداء).

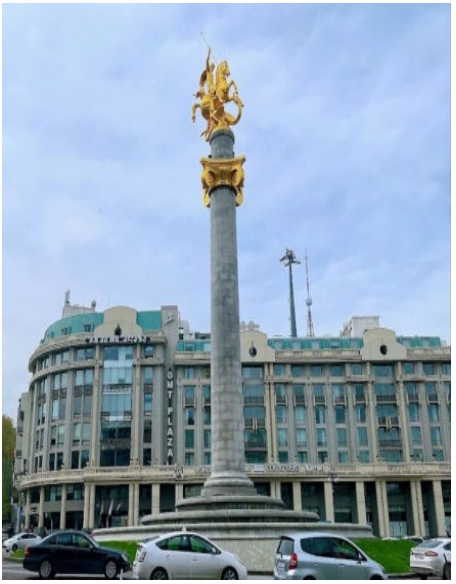

وتسخالطوبو هذه، إحدىٰ منتجعات السياحة العلاجية الآن، وتقع علىٰ بعد ٢٥٠ كم من تبليسي وسبعة كيلومترات فقط من كوتايسي.

أمّا جورجيا فيُنسب اسمها إلىٰ القدِّيس جورج عقب دخول المسيحية إليها في القرن الرابع الميلادي، وهو جندي من أصل يوناني، خدم في الحرس الامبراطوري الروماني زمن الامبراطور دقلديانوس، وحُكم عليه بالإعدام بعد رفضه التنازل عن مسيحيته، وبهذا عُدّ شهيدا وقدِّيسا تتسابق الكنائس والمدن والأدبيات المسيحية في مختلف الدول علىٰ التبرُّك باسمه، وفي أشهر ميادين العاصمة تبليسي وهو ميدان الحرية تجد تمثاله المصنوع من البرونز والمغطّىٰ بالذهب بارتفاع ٦ و٥ مترا، يمتطي حصانا ويطعن تِنّينا من فوق عمود جرانيتي ارتفاعه ٣٥ مترا، بعد أن حلّ محلّ

تمثال للزعيم الروسي البلشفي[1] لينين في خطوة رمزية لتأكيد الاستقلال وإعلان الطلاق البائن مع الحقبة السوفيتية. ونظرا لازدحام الميدان الذي يصبّ فيه ستّة شوارع، فقد تطلّبَت مطالعة التمثال بإمعان، دورانا فيه مرّتيْن مع إبطاء سرعة السيّارة قدر المُستطاع.

(١) لفظ البلاشفة مأخوذ من الكلمة الروسية (بولشيفيكي) وتعني فريق الأكثريّة .

الرجل الحديدي

متحف ستالين-مقصورة القطار-مدينة جوري

أثناء قراءتي عن جورجيا قبل السفر، علىٰ اعتبار أنّ العيب كلّ العيب في إقدام المرء علىٰ زيارة بلد بذاكرة بيضاء، علمْت بوجود متحف لرجل روسيا الثاني في مسقط رأسه جُوري، ولمّا طلبْت من مستشار الشركة السياحي إدراجه ضمن برنامجي السياحي، تعجّب قائلا: ستالين! لا أظنّه بالمَعْلم السياحي المستحِقّ للزيارة؟!

ثم إنّ السائق الجورجي وفور استقباله لي في المطار، سألني مستغرِبا ومستنكِرا: هل حقًّا تودّ زيارة ستالين؟!

في صباح رابع أيام رحلتنا، وهو يوم الأحد الإجازة الرسمية هناك، كنّا علىٰ موعد مع رجل الصّلب في متحفه الذي يفتح أبوابه في العاشرة صباحا كأغلب المصالح الحكومية هناك. وجيّد أن مقرّه في بلدة جوري الواقعة علىٰ طريقنا من تبليسي حيث انطلقنا في الحادية عشرة صباحا، إلىٰ بورجومي التي إليها وجْهتنا لقضاء يومين. البلدة تبعد نحو ٧٠ كم من العاصمة، وقريبة من منطقة أوسيتيا المحتلّة، واستغرق الطريق إليها زهاء ساعة. وفي عام ٢٠١٠ وعلىٰ خلفية نزعة روسيا التوسّعية وما ترتّب عليه من توغّل في الأراضي

الجورجية عام ٢٠٠٨، أزالت الحكومة الجورجية تحت تأثير الغضب الشعبي تمثالاً لستالين كان منصوباً لسنوات طوال في قلب البلدة.

يفترش المتحف مساحة واسعة في منتصف المدينة الصغيرة، وعلىٰ يمين المدخل يعرض بعض الباعة هدايا تذكارية تتحدّث بلسان المعلّم والقائد المختلَف حوله الآن، بين جيل قديم تغضّنَت جبهتُه وتَقوّس ظهرُه يرونه بطلا قوميا وزعيما تاريخيا هزم هتلر في ستالينجراد وأنقذ العالم من جحيم النازية، وبين جيل من الشباب في رقبتهم السلاسل وعلىٰ أكتافهم الوشم يرونه ديكتاتورا ويطالبون بمحوه من الذاكرة الجورجية التي تتنفّس الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان الآن.

علىٰ يسار المدخل تربض مقصورة رئاسية طويلة لقطار باللون الأخضر، مؤمَّنة ضد الاغتيالات بزجاج مضادّ للرصاص، استخدمها ستالين في تنقّلاته إلىٰ إيران وألمانيا لحضور مؤتمرات دولية هامة عوضا عن طائرة يخشاها، وهو الرهيب الذي لا يُقهَر كما يسمّونه! المقصورة عبارة عن ممرّ طولي من مدخلها إلىٰ مخرجها، وعلىٰ يساره وبالترتيب؛ مطبخ، تليه غرفة بأريكة ومكتب صغير ودولاب،

ثم غرفة نوم بسريرين يعلو بعضهما البعض استغلالا للمساحة الضيّقة ربّما أُعدّت لمرافقيه، ثم غرفة نوم ثالثة أوسع من سابقتها وملحَق بها حمّام متطوّر بالنظر إلىٰ الحقبة التاريخية، إذ يحوي قاعدة مرتفعة عن الأرض وحوض استحمام. وفي النهاية ينفتح الممرّ علىٰ قاعة اجتماعات بطاولة مستطيلة محاطة ببضعة كراسي، لطالما نُوقشت فيها قضايا مفصلية تخصّ مستقبل روسيا والعالم بأسْره، لا سيّما زمن اندلاع الحرب العالمية الثانية. وفي تلك القاعة، صامت المرشدة المشرفة علىٰ المقصورة عن الحديث معنا، لأنها حسب قولها تتحدّث الفرنسية والجورجية والروسية، ولا تتحدّث الإنجليزية، وببعض سماجة وعجرفة لا تليق بامرأة، سمحَت لنا بالتقاط الصور دون الفيديو، وتَعجّلتْنا لاستقبال وفد جديد.

في المساحة الخضراء التي تتخلّل أجزاء المتحف الثلاثة (مقصورة القطار، والبيت، والمتحف)، وتحديدا بين البيت والمتحف، ينتصب تمثاله الرخامي الكامل فوق قاعدة مرتفِعة اتّكأْت عليها أثناء التقاط صورة لي، ويغفر الله لي إن كان التقاط الصور مع التماثيل محرَّما كما يفتي البعض، فما قصدْت تمجيد

ملحِد استبدل الشيوعية بالأديان وفتح باب سعيره علىٰ المسلمين خاصة في شبه جزيرة القِرم بحجّة سخيفة هزيلة هي الخيانة وموالاة النازية! وحاشاني كذلك أن أروّج لصناعة التماثيل ومضاهاة خلق الله.

التمثال يطلّ علىٰ السيّاح الداخلين إلىٰ المتحف من أعلىٰ، بشارب كثّ أسفل شعر رأس مرتَّب، تليهما بَدْلة أنيقة بياقة محكَمة حول العنق وسترة فضفاضة بجيبيْن، وصولًا إلىٰ حذاء شتوي برقبة تصل إلىٰ الركبة كرجال المطافئ. وبينما يقبض بيده اليمنىٰ علىٰ كتاب باعتباره دودة كُتب وصاحب مكتبة شخصيّة من العيار الثقيل، فإنّ يده اليسرىٰ وبكلّ أبّهة اختار لها النحّات جيب بنطاله الجانبي.

خلْف التمثال وجدتُ العشرات يتوافدون لرؤية بيته المتواضع الأقرب إلىٰ كوخ، أكثره من الخشب و أقلّه من الطوب، ومرتفِع

قليلا عن الأرض. مساحته لا تزيد عن غرفتين، غرفة منهما تحوي سريرا في حدود ١٣٠ سم في العرض يسع الأب والأمّ وطفلهما الوحيد، مع منضدة يعلوها مصباح يعمل بالكيروسين عايشْناه لسنين في دارنا قبل دخول الكهرباء، إضافة إلىٰ دولاب خشبي. ولضمان عدم اللمس والاقتراب، وُضع حاجز بعد باب الدخول، يُكتفَىٰ من ورائه بالنظر والتقاط الصور.

وفي أسفل يسار البيت، بابٌ مغلَق يؤدّي إلىٰ قبو كان مقرّ عمل والده كإسكافي بسيط حلم أن يَخلفه ولدُه فيه ويواصل إصلاح الأحذية المهترئة، بينما أرادتْه أمّه كاهنا، وتَمنّىٰ هو أن يكون معلّما، وذهب كلُّ ذلك أدراج الرياح أمام سياسة صيّرتْه زعيما برتبة دكتاتور ودرجة قاتل جماعي.

وقد بُني المتحف في الأساس عام ١٩٥١ ليوثّق تاريخا محلّيا للبلدة، ولكنه عام ١٩٥٧، أي بعد وفاته بأربع سنوات، صار ستالينيا قلبا وقالبا. المبنىٰ العتيق والسجاجيد الحمراء والسلّم العريض

والرخام الفخم، يُشعرك أنك في حضرة قصر الكريملين، هذا إذا حذفنا الكلب الرابض بأمان ولا مبالاة أمام المدخل!

عند الدخول، سألْت إحدىٰ المرشدات التي اطّلعَت علىٰ التذكرة عن مترجِم أو مترجمة إلىٰ الإنجليزية، فطلبَت منّي الانتظار إلىٰ أن يأتلف وفد يجهل الجورجية والروسية مثلي. وأثناء تجوالي الحرّ، تناهي إلىٰ سمعي كلمة (مخصوص) تفوّه بها أحدُهم أثناء حديثه إلىٰ مرشدة تطوف بوفده، فخمّنْت أنه إيراني، وبالفعل كان الوفد إيرانيا، والمرشدة تشرح لهم بلغة فارسية متقَنة، ومعلوم ما بين اللغة الفارسية والعربية من اشتراك لفظي، وكم كانت مرحة ومنشرحة حين أخبرتْني بابتسامة لطيفة أن التصوير بالفيديو ممنوع ولكن يمكنني التحايل بخفض الهاتف ومواصلة التصوير، ولكني الحقيقة فضلت الالتزام بقانون المتحف احتراما للفن والثقافة وليس خوفا من بطش الرجل الحديدي.

في قاعة منفصلة علىٰ يسار منتصف السلّم المؤدِّي إلىٰ القاعات العلوية، يقع مكتبه الخشبي وفوقه هاتفيْن بقرص، لا بدّ أنه حادث من خلالهما تشرشل وروزفلت وديغول، وعلىٰ الكراسي التي

اصطفّت أمامه وعلىٰ جانبيه، ربما جلس بعض تلاميذ الشيوعيّة الهالكة في عالمنا العربي ليتلقُّوا الأوامر صاغرين.

علىٰ يمين المكتب، دولاب زجاجي به مقتَنَيات شخصية للغاية، كلوحة شطرنج وزجاجات عطور وقنينة نبيذ وعيّنات من سيجار وأكثر من بايب أو غليون، إذْ كان مدمنا لتدخينٍ دفع ضريبتَه حين تُوفّي علىٰ خلفيّة تصلّب شرايين الدماغ وإصابة مباغتة بجلطة دماغية. وفي دولاب آخر، ملابس شتوية وأحذية. وفي ثالث، بعض النياشين والأوسمة. وعلىٰ الجدران تتناثر تماثيل منحوتة بأحجام مختلفة، مع صور شخصية له مرسومة علىٰ الورق وأخرىٰ مطرَّزة علىٰ السجاجيد.

ومن هذه القاعة تصعد بضع سلالم إلىٰ باحة واسعة مقسَّمة إلىٰ قاعات منفتحة علىٰ بعضها البعض، ومكتظَّة بصور تؤرّخ لحياته في مختلف مراحلها، وتسجّل اللحظات الفارقة بكل تفاصيلها، لقاءاته مع زعماء العالم، وجلوسه بين يدي معلّمه لينين، وهدايا تخطب ودّه قادمة من دول وحكام، وثائق ومراسلات بخط يده، إضافة إلىٰ ما

كتبتْه عنه الصحافة، ونسخ من كُتب عدّة كان محورها، ومجسّمات لدبّابات امتطىٰ صهوتها.

وهكذا من قاعة إلىٰ قاعة تحكي تفاصيلها اللغة الجورجية والروسية وقليل من الإنجليزية، انتهاء إلىٰ قاعة مميَّزة حمراء الأرض والجدران، تتوسّطها دائرة، في مركزها قاعدة رخامية فوقها قناع من البرونز أُخذ له عقب وفاته، وهذه القاعة ذات الإضاءة المنخفضة والقناع، أحالت مخيّلتي إلىٰ غرفة مظلمة في المتحف المصري القاهري يتوسطها القناع الذهبي للملك توت عنخ آمون داخل صندوق زجاجي مضيء يُمنع منعا باتا تصويره أو الاقتراب منه..

وأذكر أني حين وقفْت أمام هذا القناع الستاليني، أصابتْني رعدة ذكّرتني بفرعون عقب غرقه وطرحه علىٰ الشاطئ ليراه الغادي والرائح.. ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ (١).

(١) يونس ٩٢.

خرجْت من المتحف لأجد السائق علىٰ البوابة الخارجية المواجهة للشارع وكأنه أقسم بالإنجيل ألّا يطأ عتبتَه، وما إن رآني حتىٰ ابتسم وأشار بيده، وكأنّه يسأل: كيف وجدتَه؟

هل ارتحْت الآن؟!

طبعا قدّرْت مشاعره العدائية المتنامية تجاه الرُّوس، بعدما أخبرني لاحقا أنه أحد المهجَّرين من أجمل بقاع جورجيا علىٰ البحر الأسود، وهي مدينة سوخومي في إقليم أفخاذيا، وأن بيتًا له من أربعة طوابق سُلب منه علىٰ أثر الاحتلال الروسي للإقليم والذي مازال قائما إلىٰ اليوم.

هناك مطالَبات عدّة بإغلاق المتحف، وتساؤلات من ناشطين سياسيين وحقوقيين عن جدوىٰ وجوده، ولكنّي لا أظنّ أنّ جورجيا ستُقدم علىٰ ذلك، خاصة أنّ هنالك إحصاءات عن أكثر من مائة وخمسين ألفا يفدون عليه سنويا، كلّ ما أتوقّعه انفتاح المتحف ليكون أكثر حيادا، لأنه بصورته الحالية يوثّق نصف المَشهد، ويغضّ الطرف عن قهر السجون ومعسكرات السُّخرة والمزارع الجماعية وحملات التطهير وحفلات الإعدامات التي أَوْدت كما يقال بحياة أكثر من مليون شخص.

يُـذكر أنّ جوزيـف فيـساريونوفيتش سـتالين (وكنيتـه الأصـلية: جوغاشـفيلي) وُلـد في ٢١ ديـسمبر ١٨٧٩، وتُـوفّي في ٥ مـارس ١٩٥٣، ودُفن بجوار مبنىٰ الكرملين في موسكو بعدما خلف لينين في الحُكم لأكثر من ثلاثة عقود (١٩٢٢-١٩٥٣) كأطول فترة حكم عرفتها روسيا غير القيصرية حتىٰ اليوم، وبواقع ٦٣٦و١٠ يوما. وفي ذكرىٰ مولده كلّ عام، يجتمع عشرات الأشخاص للاحتفال أمام المتحف، متبارين في إلقاء الخطب قبل الخروج في مسيرة إلىٰ الميدان الذي استقرّ فيه كتمثال شاهق بطول ستة أمتار قبل إزاحته إلىٰ أرض مهجورة كأنقاض.

وعن طبيعته الدكتاتورية بشهادة نيكيتا خروتشوف الذي نشر غسيلَه القذر علىٰ الملأ بعدما خلفه في المنصب، حدث في المؤتمر العام للحزب الشيوعي أن أرسل أحد المندوبين ورقة يسأل خروتشوف فيها: لم سَكَتَّ عن الانتهاكات العنيفة لحقوق الإنسان أيام سلفك ستالين؟ وبعدما قرأ السؤال بهدوء علىٰ الملأ، طلب من السائل أن يكشف عن شخصيته؟ ولمّا لم يجرؤ السائل علىٰ ذلك، علّق قائلا: ونحن كنّا كذلك نخاف أن نعلن عن مواقفنا أيام ستالين.

وضمن سطور الأدب الروسي الساخر، سُئل أحدهم: لماذا اعتُقلت زمن ستالين؟ فأجاب: عند مروري أمام الكرملين، قال لي أحد المارّة: إن سور الكرملين عالٍ جدّا. فسألتُه: ولِمَ هو عالٍ هكذا؟ فأجاب: كي لا تقفز الحمير فوقه..فقلت له: تقفز من الخارج إلىٰ الداخل أم من الداخل إلىٰ الخارج؟ وفي لمح البصر وجدتُني خلف القضبان ولم يُخرجوني إلّا بعد وفاة ستالين.

والعجيب أنّ ستالين رُشّح مرّتين لنيل جائزة نوبل للسلام في عامَي ١٩٤٥، ١٩٤٨ بحجّة جهوده في إنهاء الحرب العالمية الثانية، وفي عام ١٩٤٩ أنشأ هو جائزة موازية سمّاها جائزة ستالين للسلام العالمي، وهي الجائزة التي غيّر خروتشوف اسمها إلىٰ جائزة لينين بعد وفاة ستالين وتولّيه مقاليد الأمور وبدء سياسة اجتثاث الستالينية.

ورغم أنّ ما ارتكبه ستالين من جرائم في حقّ الإنسانية يفوق بكثير ما اقترفه الزعيم النازي الألماني هتلر، إلّا أن الآلة الإعلامية الجبّارة التي يموّلها اليهود دارت وبقوّة في اتجاه النيل من هتلر الذي ساءت سمعته وبدا في التاريخ كأنه الإرهابي الأكبر علىٰ غير الواقع.

ثقافة الطعام

خاشابوري أدجارولي

كما لا يجوز أن تسافر إلىٰ مصر وتعود دون أن تتذوّق الكشري والطعميّة والمحشي، ولا أن تذهب إلىٰ الأردن وتؤوب دون أن تأكل المَنسَف، ولا أن تمرّ بالمغرب وترجع دون تناول الكُسْكسي، فلا يصحّ أن تسافر إلىٰ جورجيا وتفيئ دون أن تأكل ثلاثة أطعمة لحرف الخاء فيها نصيب، وهي الخاشابوري، والخِينكالي، وشُورْشِخِيلّا..

فتغيير عادات الطعام جزء من متعة السفر، والتعرّف علىٰ مطابخ الدول فصل في الاطلاع علىٰ ثقافتها، بمعنىٰ أنّ للطعام وظيفة ثقافية وتاريخية، إلىٰ جانب وظيفته الاجتماعية والصحيّة، ولهذا أستغرب كثيرا ممّن رأيتهم يرحلون وحقائبهم مليئة بطعامهم الذي اعتادوه، ففي الحلال من الطعام في أيّ بلد حطّوا فيه رحالَهم متَّسَع.

والخاشابوري؛ عجينة هشّة قريبة من عجينة البيتزا والفطائر، محشوّة بالجبن والزبد، وقد يُضاف إلىٰ الجبن والزبد في أنواع أخرىٰ منه، البيض أو البطاطس أو السبانخ. ولأنه العمدة في المطبخ

الجورجي؛ فقد تناولتُه ثلاث مرّات، وفي كل مرّة اكتشفْت طعما مغايرا؟! فأنفاس الطاهي لها بصمتها حتىٰ لو تشابهَت المقادير والمكوِّنات، ونوع الجبن المستخدَم له الكلمة العليا.

وأفضل تلك المرّات وألذّها، كان حين انتهينا من زيارة متحف ستالين وعرجنا في طريقنا من مدينة جوري إلىٰ بورجومي علىٰ مخبز، وطلبناها بالجبن فقط، وكان علينا الانتظار خمسا وعشرين دقيقة لتجهيزها بعد دفع ١٨ لاري ثمنا لها، وهو مبلغ معقول جدّا جدّا بالنسبة لحجمها الكبير المجزّأ إلىٰ ثمان قطع، وبالكاد يأكل المرء منها اثنتيْن ويحمد الله ويقبّل يديه من الجهتيْن، للآن ما زالت رائحتها الشهية في ذاكرتي، ولا تدري أهي رائحة العجينة بقوامها اللين المحبَّب إليّ، أم نوع الجبن الدسم المالح قليلا والذي من وفرته يسيل من الأطراف كالقشدة، وأكبر دليل علىٰ لذّتها أن ابنتي تناولَت منها قطعة وراء قطعة، وتلك معجزة إذا علمْت أنها لا تأكل إلّا بالطبل البلدي ومزمار حسب الله ورقصة من فرقة رضا؛ إذ لا بدّ لها من تمرير الطعام علىٰ حواسها الخمس لتختبره وتتأكد من عدم احتوائه علىٰ لغم ينفجر في معدتها قبل أن تتقبّله.

وفي المرّة الثالثة، وفي اليوم قبل الأخير من رحلتنا حيث مطعم البحر الأسود في مدينة باتومي، فضّلْت خاشابوري أدجارولي، بعدما رأيت السائق يواظب عليه كالصلاة ويمدحه كأنه أبرّ أبنائه، وهو عجينة بالجبن والزبد أيضا، ولكنها تأخذ شكل القارب المدبَّب من طرفيه، مع إضافة بيضة نيّئة أعلىٰ سطح الجبن فور الخروج من الفرن، وهذا الطرف المدبَّب من الناحيتين تقطعه وتستخدمه كملعقة لتقليب محتويات المنتصَف من جبن وزبد وبيض، ولأنّني لم أستسغ قصّة البيض النيّئ ولم أهضم ما قيل عن فائدته الصحية، فقد استمحت النادل عذرا أن يعفيني منها، ففعل.

وأفضل مكان يتفنّن في هذا النوع هو مدينة باتومي الساحلية التي اقتبس منها شكل القارب. ويبدو أن لكلّ منطقة نوعها المميَّز من الخاشابوري الذي تشتهر به ويُعرف باسمها، وإن كانت المطاعم وكذلك المخابز علىٰ استعداد لتلبية طلب الزبون حتىٰ لو اشتهىٰ خاشابوري بجبن العصفور وبيض النمل.

أمّا الخِينكالي، فهي أيضا عجينة محشوّة ولكن باللحم المفروم وعصارته، وأحيانا تُحشىٰ بالجبن أو البطاطس أو الفِطر، موطنها الأصلي منطقة باساناوري حيث الجبل والريف، ولها طريقة مخصَّصة في الأكل تقول الأسطورة أنّ مَن يُخطئها يُبتلىٰ بزوجة شرسة الطبع تنكّد عليه عيشه وتَقلِب نهارَه ليلا! وبعد التأكُّد من كونها حلالا لا يخالطها شيء من دهن أو لحم الخنزير الذي رأيته بدينا

كالفيل يرعىٰ علىٰ جانبي الطريق، تناولتُها مرّة علىٰ سبيل التجربة، فما الأسفار سوىٰ تجارب، وفي التجارب سبع فوائد، والسبعة هنا دليل الكثرة المطلَقة بلا تقييد، لأنّ مبتدأ الكثرة وأدناها في لغة العرب ثلاثة بينما يعدّون السبْعة هي المنتهَىٰ في الكثْرة..

وللأمانة، لم يعجبني كثيرا طعمها بقدر ما أعجبْني طريقة طهيها الصحيّة بالسلْق، وشكلها الوسيم الذي يتّخذ شكل الوردة إن جاز التعبير، وفي هذا دلالة علىٰ أنّ الطبخ فنّ وجمال قبل أن يكون نارا

ومكوّنات، وتأكيدٌ علىٰ أنّ العين قبل الفم تذوق وقبل المعدة تهضم، وإن كانت العين من الفنّ والجمال لا تشبع، وذلك علىٰ العكس من مراكز الشبع في الدماغ التي يمكن خداعها بملْء المعدة بشيء من السلطة والماء والهواء.

وعلىٰ ذِكر الفيل والخنزير، أنوّه إلىٰ أنّ بينهما الكثير من الصلات؛ إذ يُروىٰ عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس لكن بصيغة التضعيف، أنّ روث الدواب علىٰ سفينة النجاة زمن الطوفان كَثُر، فألهم الله سيدنا نوح أن اهمز ذنَب الفيل، ففعل، فنزل خنزير وخنزيرة التهما هذا الروث في سرعة البرق وكانا للقمامة بعد ذلك بالمرصاد.

وبخلاف الخاشابوري والخِينكالي.. شورشيخيلا ليست عجينة، ولكنها فاكهة مجفَّفة محشوّة بالمكسّرات، سُبكت بحرفيّة عالية في خيط رفيع كالعقْد، ثمّ غُمست في عصير الفاكهة حتىٰ تشبّعَت وقالت: كفاية خلاص! وحسب نوع الفاكهة والعصير تختلف في اللون والطعم والسعر، وعلىٰ واجهة المحلّات تراها تتدلّىٰ كالشموع والمَسابح، وتُباع بثلاث وخمس وسبع لاريات للواحدة

منهـا، ولِتناوُلهـا طريقـة يُفـضَّل تعلمها أوّلا وإلْا وقعْت مثلي في حيص بيص وتعبَت أسنانك في قضمها.

ويعـود سـرّ شـيوع هـذه الأكـلات الـثلاث في جورجيـا دون غيرهـا، إلـىٰ وفـرة القمـح ومنتجـات الألبـان والفاكهـة في مزارعها كوفرة الماء والخضرة في جنباتها؛ فعلىٰ جانبَي طريق ترحالنا من مدينة إلىٰ مدينة، رأيت علىٰ مدّ البصر مساحات شاسعة تتلألأ بسنابل القمح الصفراء التي تُصنَع منها المعجّنات علىٰ مختلف أشكالها كالخاشابوري، حتىٰ ذُكر أن من بين ثلاثة وعشرين نوعا عالميا من القمح، أربعة عشر منها تُزرع في جورجيا.

وبين المساحات الخضراء التي غطّت الجبال والوديان كالسجّاد، كلّت كاميرا هاتفي في تصوير أسرابٍ للبقر تكفي احتياجات العالم من اللحوم، وفي ملاحقة قطعان الأغنام والخيول التي ترعىٰ بغنْج

ودلال تُحسد عليه، بل إننا أكثر من مرّة توقّفْنا بالسيارة في منتصف الطريق، انتظارا للأبقار المبجَّلة التي اختارت العبور من جهة إلىٰ أخرىٰ في حريّة قلّما تنعم بها إلّا ربّما في الهند الهندوسية. ومن الضرْع الممتلِئ عن آخره لهذه الثروة الحيوانية الهائلة تَوفَّرت منتجات الألبان وتنوَّعَت؛ حليب، جبن، قشدة، زبد، لَبْنة. ومن بين أنواع الجبن التي اصطفّت أمامنا في وجبات إفطار الفنادق الثلاث التي نزلْنا بها، أذكر أنّي عددْتُ خَمْسا! ولعلّ هذا يفسّر الكرم الحاتمي في كمية الجبْن التي تَسكن أحشاء الخاشابوري، ويجعلني في الوقت ذاته أتحسّر وبشدّة علىٰ فطائر الجبن التي أشتريها هنا وهناك خارج جورجيا، ثم أبحث عن الجبن داخلها فلا أكاد أجده إلّا بالمنظار! وما يُقال عن وفرة الجبْن الجورجي يُقال عن البيض.

أمّا الفاكهة والتي من لحم أكتافها ترعرعت الشوشرخيلا وتعدّدَت ألوانها كالفراشات، فحدِّث يا صديقي ولا حرج؛ خوخ، كرز، تين، مشمش، برقوق، بطيخ أحمر، بطيخ أصفر أو شمّام كما نسمّيه..وبأسعار زهيدة حقًّا. وفي كلّ مَزار سياحي، ستجد الباعة يصفّون الفاكهة من كلّ صنف أمامهم، ومَن يغريه منظرها من السيّاح

ويشتهيها عصيرا طازجا، فلْينْتَقِ فاكهتَه، وأمام ناظريه تدور العصّارة دون إضافة سكّر أو ماء ورد أو غيرهما كما تفعل محلّات العصير في بلاد أخرىٰ ويدّعونه طازجا، واشرب يا مولانا بالهناء ولا تنْس الثناء علىٰ الله والدعاء.

ومن المألوف علىٰ جانبي الطريق، أن تلمح عرانيس (أكواز) الذرة معلَّقة كفوانيس رمضان، في وجود حلّة ضخمة فوق نار تتأجّج، بداخلها ماء يغلي لسلْق هذه الكيزان عند الطلب ومن ثمّ بيعها بسعر زهيد، وهو علىٰ خلاف ما ألفناه في مصر من أكواز الذّرة المَشْوِية.

ولأنّ الحرام يُزاحم الحلال، بل ويقطع عليه أحيانا الطريق كبلطجي عربيد، فقد شاعت وراجت صناعة النبيذ من تخمير فاكهة العنب، وتُعدّ مدينة كاخيتي مهْده قبل ٨٠٠٠سنة، يشربه الجورجيون أنخابا علىٰ موائد الاحتفالات في الأعياد والمناسبات، ثمّ يتّخذونه مصدرا للدخل عبر تصديره إلىٰ الخارج، ولهذا أَطلق السير جون أوليفر واردروب -رئيس المفوضية البريطانية في جنوب القوقاز- علىٰ جورجيا لقب بلد النساء والنبيذ والأغنية، وذلك في كتابه باللغة الإنجليزية (مملكة جورجيا). وبخلاف المصانع العملاقة ذات

الآلات الحديثة، يُصنع بعضه بطرق تقليدية في أواني فخارية بالبيوت والمطاعم، بل وفي الكنائس التي خلعت عليه صفة القداسة. وفي أوّل عشاء لي بمطعم فخم في تبليسي نسيت اسمه، أراني السائق العزيز برميلين من الخشب بينهما أنابيب يجري فيهما تصنيع الفودكا المحلّيّة، وتفوح منهما رائحة كرائحة الخميرة والبوظة، وبكرمٍ صادف غير أهله عرض عليّ تذوّقها، فقلت ألْف حاشا ومليون كلّا، أذاقني الله وإياكم خمر الجنّة التي قال فيها ربنا جلّ جلاله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِين * بَيْضَاء لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِين * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُون﴾ (١).

وإلىٰ جانب المطعم الجورجي وأكلاته المميّزة، لن تعدم عن يمينك وشمالك في هذا الشارع أو ذاك المطعم التركي ولا الإيراني ولا الهندي، ولا المطعم العربي في ثوبه الشامي، كما لن تعدم المطعم الغربي بوجباته السريعة، لا سيّما ماكدونالدز الذي يملك أفخم فرع له في باتومي، وإنّما شهدنا بما رأينا لا ما علمْنا، فالعلم أوسع من الرؤية ولكن الرؤية أصدق حتىٰ لو كانت بطرف العين.

(١) الصافات ٤٥.

وعلىٰ ذِكر ماكدونالدز ولكن فرع تبليسي الموجود علىٰ يمين الخارج من ميدان الحرية والذي تناولْنا فيه غداءَنا ذات يوم، وبالنظر إلىٰ اختيار هيئة اليونسكو لمدينة تبليسي كعاصمة عالمية للكتاب عام ٢٠٢١م؛ لن أنسىٰ مكتبة عتيقة لبيع الكتب المستعمَلة تقع خلفه مباشرة، تتكوّن من ثلاث غرف رحبة مزدحمة إلىٰ السقف بآلاف الكتب، فقلْت في نفسي: هذه والله غنيمة، ورحت أقلّب فيها بشغف، هذا باللغة الجورجية وذاك بالروسية وثالث بالفارسية ورابع قليل جدا بالإنجليزية، وما صادفْتُ كتابا عربيا واحدا يوحّد الله، ولو وجدْت لاشتريت حملَ بعير جبرًا لخاطر هذه السيدة التي انحنىٰ ظهرها في عشْق الكُتب، ولو عادت بي الأيام إلىٰ جورجيا لزرْتها في مكتبتها التي أظنّها اتّخذتْها بيتا أيضا، وأصلحْت خطئي بشراء ما تَوفّر لديها بالإنجليزية أو حتىٰ بالجورجية، المهم أن أشتري منها والسلام.. سامحيني أيّتها الأخت العزيزة، فقد خشيتُ من تأخُّر السائق ومن ثمّ زيادة كلْفة وقوف السيارة التي استأجرنا لها ساعة واحدة بخمسة لاريات، ولا عجب، فتبليسي مزدحمة بنحو مليون ونصف من السكّان، وربما بنصف هذا العدد من السيّارات التي لا

تكاد تجد لها في بعض الأماكن موضع قدم تُوقِفها فيه لقضاء غرض دون مساعدة من سائس تضع في يده بعض المال..

ولمَن يسعفه الوقت من عشّاق السيارات والتاريخ وتكنولوجيا الصناعة، أشير عليه بزيارة متحف تبليسي للسيارات في جنوب المدينة، وسيجد في انتظاره سيارات لمسئولين روس سابقين إضافة لسيارة الرئيس الثاني لجورجيا إدوارد شيفرنادزة (١٩٢٨-٢٠١٤م)، وغيرها من نوادر وتحف المَركبات القديمة.

نظرة الطائر

متاتسمندا بارك-عجلة فيريس-تبليسي

يقول الأديب الإنجليزي ت.س. إليوت: "انطلقوا أيها الرحّالة، فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحّالة"..

ومع انطلاق رحلة الذهاب من مسقط فالشارقة إلىٰ تبليسي، ورحلة العودة من تبليسي فأبو ظبي إلىٰ مسقط؛ اتفقْنا أنا وابنتي وزوجتي حفظهما الله علىٰ تناوب الجلوس بجوار نافذة الطائرة؛ ذلك أنّ للإطلالة علىٰ المباني والجبال والأشخاص والشوارع والسيارات من أعلىٰ سحر وجمال، ورؤية الأشياء تَصغُر أمام ناظريك أثناء إقلاعٍ تتسلّقُ فيه سلّم السماء ثمّ تَكبُر أثناء الهبوط رويدا رويدا ينقلك من عالم الواقع إلىٰ عالم الخيال.. ناطحات السحاب التي تسدّ الأفق تراها مجرّد مكعّبات لُعَب أطفال، والجبال الشاهقة التي تختال حتىٰ تكاد تلمس بيدها السحاب تتواضع لتصبح في حجم الأحجار، والغابات بأشجارها الضخمة المعمِّرة تصبح كالعشْب المنبطِح علىٰ الأرض، والشوارع الطويلة العريضة تصبح كالدّيدان والثعابين، أمّا البشَر الذين يملؤون الأرض ضجيجا فباتوا في خبر كان ولم تَعُدّ تحسّ منهم من أحدٍ أو تسمع لهم رِكْزا.

وتبقىٰ اللحظة الاستثنائية الآسِرة، في التحليق فوق السحاب، ورؤيته كأكوام من القطن الأبيض المندوف تتّخذ أشكالا بديعة

متغيّرة، تأْتلف تارة وتفترق تارة؛ إذ ساعتها وبتلقائيّة لن ينطق لسانُك سوىٰ بالتسبيح، ولن تهمس شفتاك سوىٰ بالتحميد، ولن تسمع من دقّات قلبك سوىٰ التهليل والتكبير؛ ذلك لأن اتساع الرؤية يفتّق الذهن ويشحذ البصيرة، وكلّما اقتربْتَ من السماء تمدَّدَت روحُك وتحرَّرَت، بينما انكمش جسدك وخفّ كالريش، وصرْتَ يا عبدَ الله مؤهَّلا للدنوّ من عالم الملكوت والظّفر بإشراقات الصفاء والإيمان والنور..

وهكذا تغمرك النظرة من أعلىٰ مرتفَعٍ متحرّكٍ في انسياب وانفتاح علىٰ الأفق، بشعورٍ طاغٍ من الجمال والجلال والصدق والابتهاج، سواء كنت علىٰ مقعدك بالطائرة، أو داخل متاتسميندا بارك، أو في دير جفاري، أو فوق قلعة أنانوري، أو أعلىٰ نُصُب الصداقة الروسية الجورجية ومرتفعات جوداوري.

ومتاتسميندا بارك؛ ليست مجرّد حديقة يلهو فيها الأطفال ويتواعد علىٰ أريكها العشّاق، ولكنها مدينة ترفيهية كاملة الأوصاف، عمرها مائة عام، وتقع داخل العاصمة تبليسي علىٰ ارتفاع ٧٧٠ مترا أعلىٰ جبل متاتسميندا التي استقت اسمَها منها، وتشغل مساحة ١٠٠ هكتار، والدخول إليها مجانا، وتجذب حوالي ١،٥ مليون زائر سنوياّ

من السكان المحليين والسيّاح. وإضافة إلىٰ المسطَّحات الخضراء، والنوافير، والمقاهي، وحديقة الحيوان، ومتحف الشمع، والألعاب التي تناسب مختلف الأعمار؛ يمكنك الإطلال علىٰ المدينة في لقطة بانورامية تلملم شعثها سواء بالعين المجرَّدة أو من خلال التليسكوب المنصوب علىٰ الأطراف.

كانت لحظة ماتعة وآمنة حين ركبْنا عجلة فيريس الضخمة الدوّارة، بعرباتها البالغة نحو مائة عربة، كلّ عربة تسع ستّة أشخاص جلوسا، ويُمنع فيها الأكل والتدخين وتناول الكحول بموجب تحذير مكتوب باللغات الإنجليزية والروسية والجورجية. ركبْنا العربة رقم٣٢، وببطء تحرّكت إلىٰ أعلىٰ حتىٰ بلغت الذروة بارتفاع ٦٣مترا ومعه سقط قلبُ زوجتي -التي تخشىٰ المرتفعات- في قدميْها، ثمّ هبطَت ببطء أيضا لتكمل دورة واحدة حافلة بالإثارة والدهشة، ومن منبرها الشاهق تراءىٰ لي الاستاد الرياضي (بوريس بايتشادزه دينامو أرينا) رغم حجمه الضخم الذي يتّسع لخمسة وخمسين ألف متفرج وكأنه دائرة رُسمت بالقلم. وقريب من العجلة

يقف برج الاتصالات متعدّد الأغراض في ارتفاع باسق بلغ ٢٧٥ مترا.

ودير جفاري أو كنيسة الصليب الذي عرجنا عليه في طريقنا من تبليسي إلىٰ جُوداوْري صبيحة ثاني أيام رحلتنا، يبعد عن العاصمة ٢٠ كم تقريبا، ويعود بناؤه إلىٰ العصور الوسطىٰ[١] وتحديدا القرن السادس الميلادي، ويقع أعلىٰ جبل جفاري المرتفِع بمقدار ٦٥٦ مترا فوق مستوىٰ سطح البحر، ويرتفع بناؤه لنحو ٢٥ مترا علىٰ هيئة صليب ضخم يمتدّ من جهة الشرق إلىٰ جهة الغرب. ومن موقعه الاستراتيجي تطلّ دون عناء علىٰ مدينة متسخيتا عاصمة مملكة إيبيريا القديمة، وتشهد بوضوح التقاء نهري أراجفي وكورا كمتخاصمين يصطلحان بعد عداء ويتعانقان بعد جفاء. وفي تجمُّع صامت حول الشموع لبضع عشرات من السيّاح وقوفًا داخل الدير،

(١) تُعرف العصور الوسطى بأنها الفترة الزمنية الممتدَّة في التاريخ الأوروبي من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلادي .

جلسَت امرأة تحدّثهم بالجورجية في تبتّل، ولا أدري إن كان حديث السياحة إلىٰ العقل أو حديث الدِّين والقداسة إلىٰ القلب؟ بينما اختار آخرون ربط بعض الأقمشة حول فروع شجرة عجوز بالخارج ربما للتبرّك وطلب الأمنيات؛ عانس تبحث عن فارس أحلامها، وفقير يتمنّىٰ مليون دولار، وعقيم تطلب توأما، وهَرِم لا يستبعد عودة الشباب ليخبره -كما قال أبو العتاهية- بما فعل المَشيب.

وفي أواخر عام ٢٠٢٠ وتزامُنًا مع ظهور وباء كورونا، تعهّدَت الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم نصف مليون دولار لصيانة هذا الدّير من عوادي الزمن الذي فعل فعْله ونال من بعض جدرانه المتآكِلة كعظامٍ نَخِرة وأسنان عاث فيها التسوّس، وكما قال المتنبّي:

"تتخلّف الآثارُ عن أربابها
حينًا ويُدركها الفناءُ فتَتْبَع"

وعلىٰ بعد ٦٤ كم من العاصمة، وعقب تناول الآيس كريم بنكهة الفراولة علىٰ شاطئ بحيرة أنانوري ذات المياه الخضراء الناجمة عن انعكاس الضوء علىٰ الجبال الخضراء المحيطة بها كالقلادة والسُّوار، كان عليّ استجماع قواي لتسلُّق دهاليز ضيّقة تقطع النّفَس، بغية الصعود لأعلىٰ قلعة أنانوري المجاورة للبحيرة، وهي عبارة عن

مجمّع قلاع يشرف علىٰ مياه نهر أراجفي الفيروزية بالقرب من قرية أنانوري بمنطقة متسخيتا-متيانيتي، مرتفعة بمقدار ٩٠٠ متر فوق مستوىٰ سطح البحر، ويعود تاريخها إلىٰ العصر الإقطاعي ما بين القرنيْن السادس عشر والثامن عشر.

أمّا نُصُب الصداقة الروسية الجورجية، أو نُصُب معاهدة جورجيفسك التذكاري، فيقع علىٰ بعد ١٢٠ كم من العاصمة، ويستغرق الوصول إليه نحو ساعتين عبر الطريق العسكري السريع الواصل بين جورجيا وروسيا. وهو هيكل دائري ضخم من الحجر والخرسانة، صعدْنا له طريقا قصيرا معبَّدا، علىٰ جانبيه باعة الهدايا التذكارية والمأكولات والمشروبات الخفيفة، ومن خلال فتحات في جداره كالشّرفات مسيّجة لدواعي الأمن بحديد، كنا علىٰ موعد مع إطلالة ولا أروع علىٰ وادٍ سحيق مخيف يُسمّىٰ وادي الشيطان، يقع أسفل النصب بنحو ٦٠٠ م وتحوطه جبال القوقاز في زيّ أخضر قشيب. وعلىٰ أديم المحيط الداخلي للهيكل المقوَّس، رُسمت وبألوان زاهية تنبض بالحياة، جدارية تُسيل لعاب الإعجاب باستخدام بلاط فسيفسائي يصوّر مشاهد مُنتَقاة من التاريخ الجورجي والروسي. وقد بُني النُّصُب عام ١٩٨٣ للاحتفال

بالذكرىٰ المئوية الثانية لمعاهدة جورجيفسك، وهي المعاهدة التي داست عليها روسيا عام ١٨٠١ بحذاء شتوي ثقيل، فابتلعت جورجيا بعدما كان الاتفاق ينص علىٰ حمايتها من الأعداء ووضعها في الحِجْر لا في العُبِّ، وهكذا جزاء من يأمن للدُبّ، وعلىٰ قول الإمام محمد عبده: لعن الله ساس ويسوس وسائس ومَسوس.

ومرتفعات جُوداوري التي كانت ختام يوم رحلتنا، هي عاصمة السياحة الشتوية الجورجية، إذ يكسوها الجليد شتاء نظرا لارتفاعها المنيف البالغ ٢٢٠٠ متر فوق سطح البحر، وتحوي أكبر منتجَع لتزلّج الجليد في جورجيا، وإليها ينفر عشاق الثلج الذي يتراكم بسمك مترين فيما بين شهري ديسمبر وأبريل، وأغلبهم بالتأكيد ليسوا من العرب الذين يكثرون في الصيف، وعلىٰ رأسهم الأشقّاء السعوديون.. والحمد لله الذي عصمنا من ثلجها، إذ ما وجدْنا فيها - ونحن في يوليو كما تعلمون- غير مناظر خلّابة، وأجواء باردة منعشة، وبعض سدّة الأذن نتيجة ما يُسمّىٰ بالرضح الجوّي[1] كأنّك علىٰ

(١) الرضح الجوّي: هو الضغط الذي تتعرض له طبلة الأذن عندما يختل التوازن بين ضغط الهواء في الأذن الوسطى وضغط الهواء في البيئة المحيطة، ويساعد التثاؤب أو البلع أو مضغ العلكة على الإقلال منه.

متْن طائرة، إضافة إلىٰ ينابيع مياه معدنية ماؤها بارد وغنيّ بالحديد والكالسيوم..

ولكن فاتنا ركوب التلفريك الذي فُوجئنا بأنّه معطَّل لأسباب فنية أو مناخية لا أدري، وهو تلفريك مميّز بارتفاعه، ويحتاج لقلب ضرغام، إذ تقع أدنىٰ محطة له علىٰ ارتفاع ١٩٩٠ م بينما أعلىٰ محطة علىٰ ارتفاع ٣٢٧٥ م فوق مستوىٰ سطح البحر، بما يعني أن ما عداه من تليفركات ليست سوىٰ أقزام تلهو وعيال تلعب.

وفيما وراء جُوداوْري، لم يكن يفصلنا عن الحدود الروسية سوىٰ كازبيجي البعيدة عن العاصمة تبليسي ١٥٧ كم، ولكنها علىٰ مرمىٰ عصا طولها ١٠ كم من البوّابة الروسية واللئيم بوتين.

لؤلؤة البحر الأسود

برج الحروف الأبجدية-برج تشاتشا-عجلة فيريس-شاطئ باتومي

عقب عودتنا سالمِين غانمِين من رحلتنا، سألْتُ ابنتي وزوجتي: أيّ المدن استحوذَت علىٰ إعجابكم بين المدن التي ارتحلنا إليها شرقا وغربا في ربوع جورجيا؟ فأجابوا بلا تردّد: باتومي، وكذلك أجاب مَن سألتُهم ممّن سبقونا بالزيارة..

وظنّي أنه لا توجد مدينة أفضل من مدينة ولا دولة أفضل من دولة، فالجمال للمدن والبلدان كالأرزاق لبني الإنسان، وزّعه الله بحكمة وعدل بينها، ليحتاج البشر إلىٰ بعضهم البعض فيتعارفوا ويتزاوروا، بمعنىٰ أنّ لكلّ مدينة ودولة جمالها الخاص الذي تفتقده مدينة ودولة أخرىٰ، ولكن الفرق بين دولة وأخرىٰ يكمن في وجود مواطنين ومسؤولين وقفوا علىٰ مقوّمات الجمال لديهم فاستثْمروه إلىٰ مداه واستفادوا منه إلىٰ أقصىٰ حدّ، وعلىٰ الشاطئ الآخَر وُجد مواطنون ومسؤولون خاملون خامدون لم يكتشفوا ما لديهم من جمال ولم يوظّفوه كطاقة خلّاقة تنهض بهم، فتراءىٰ لنا أن لا جمال لديهم، وحاشاه سبحانه أن يظلم أناسًا فيخصّهم بالقبح ويُحابي

أناسًا فيُؤثرهم بالجمال.. وفي محكم التنزيل: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (١)..

ولهذا لا ينبغي لنا أن يشغلنا سؤال أين يسافر؟ عن أسئلة أخرىٰ مهمة من عيّنة: لماذا نسافر؟ وكيف نسافر؟

وباتومي؛ هي درّة جورجيا، وميناؤها الأوّل، وثالث أكبر مدنها بعدد من السكّان وصل حسب تعداد عام ٢٠٢٠ نحو ١٧٠٠٠٠ نسمة.. مناخها معتدل وهواؤها عليل وموقعها فريد، وترتفع عن مستوىٰ سطح البحر بثلاثة أمتار فقط، وبحْرها الأسود ليس بأسود كما قد يتداعىٰ إلىٰ الأذهان التي تدّعي فهم الأشياء وهي طائرة، ولكنه الشاطئ والقاع الذي يخلو من الرمل ويغطيه الحصا الداكن فينعكس ذلك علىٰ لون مائه، وأيضا لطبيعته القاسية ورياحه العاتية التي تُصعّب الملاحة فيه.

وصلناها بعد رحلة بريّة من بورجومي عبر طريق حديث اجتزناه في نحو أربع ساعات مرّت دون تعب، إذ تقع علىٰ مسافة ٢٧٥ كم منها، بينما تبعد عن العاصمة تبليسي ٣٧٥ كم، وتقترب من مدينة

(١) الإسراء ٢٠.

طرابزون التركية الحدودية الواقعة على مسافة ٢٢٠كم تقطعها السيارة في ثلاث ساعات.

وفيها، يكفيك أن تزرع الكورنيش الذي أُحسن استغلالُه سياحيا بطول سبعة كيلومترات ذهابا أو إيابا، راكبا قديمك أو دراجة أو سيارة أو سكوتر؛ لتأخذ فكرة جيّدة عن طبيعتها الترفيهية وعن الجهد المبذول في تطويرها وتحديثها حتى غدت غانية كفتاة عشرينية صارخة الجمال موفورة الدلال؛ فعلى يسارك البحر وملحقاته؛ القوارب، المطاعم، برج الحروف الأبجدية، برج تشاشا، النافورة الراقصة، نُصُب علي ونينو، التليفريك، عجلة فيريس أو دولاب الهواء. أمّا على اليمين؛ ففنادق عالمية ذات واجهات زجاجية، وكازينوهات وأسواق تجارية، ومباني شاهقة حديثة.. وفي صورة نشاز، تلمح بنايات ضخمة قديمة متعدّدة الطوابق وذات شرفات ضيّقة، تذكّرك بالمساكن الشعبية والمدن الطلابية الجامعية في مصر، وتعود إلى النظام الاشتراكي في الحقبة السوفيتية البائدة.

وبقدر ما أبهرني الارتفاع الشاهق لبرج الحروف الأبجدية البالغ ١٣٠مترا، ومنظره الساحر في الليل حين يُضاء، واستغلاله بفطنة كمنصّة للإطلال على المدينة والبحر بعد الصعود إلى

قمّته بمصاعد كهربائية؛ بقدر ما أعجبني التواء حروفه الثلاثة والثلاثين[1] حول محيطه من الأسفل إلىٰ الأعلىٰ متّخذة شكل شريط الـDNA الوراثي الحلزوني، في دلالة علىٰ مكانة اللغة الجورجية كهويّة عميقة بعمق جينات وكروموسومات الجورجيين. وإذا كانت العربية هي لغة الضاد كما هو ثابت ومشهور، فإنّ اللغة الجورجية هي (لغة الخاء) نظرا لأنّ حرف الخاء أراه القاسم المشترَك الأبرز في كلماتها.

وقد اكتمل بناء البرج عام ٢٠١١ بعدما يزيد علىٰ عام كامل من العمل الدؤوب، وقام علىٰ إنشائه المهندس المعماري ألبرتو دومينغو، مستخدِما معدن الألومنيوم، مع دعامات من الفولاذ علىٰ هيئة أنابيب. ومعلوم أنّ اللغة الجورجية هي ابنة اللغة الإيبيرية القديمة، بعكس اللغة الأذربيجانية التي انبثقت من التركيّة.

ومن اللغة إلىٰ العاطفة، وعلىٰ بعد أمتار من البرج، أعجبني توظيف التكنولوجيا في نقل الأفكار وتجييش المشاعر ومن ثمّ جذب السيّاح سيّما العشاق منهم، وذلك عبر التحفة المعمارية

(١) تتألّف اللغة الجورجية بالأصل من ٣٨ حرفا، إلّا أنّ خمسا منها هُجرت بالكامل، وباتت تتألف اليوم من ٣٣ حرفا فقط .

لنُصُب (علي ونينو) التي تخطف البصر ليلا بإضاءتها الملوّنة الجميلة، وبكسرها لقاعدة الثبات المعتادة في كلّ التماثيل حين تجد تمثالا لواقفٍ لا يجلس أبدا، أو لجالس لا يقف أبدا.

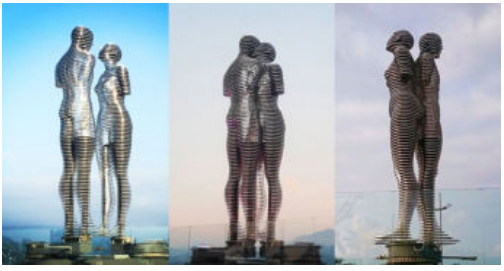

وهو تمثالان لرجُل وامرأة يتحركّان دائريًّا ببطء؛ ثمّ يتّحد جسداهما في لقطة رومانسية حالمة ويصبحا شخصًا واحداً لثوانٍ، قبل أن يفترقا لبدء دورة جديدة كعقارب الساعة. النُّصُب تم تسميته كواحد من أفضل عشرة تماثيل رومانسية في العالم، وصمّمتْه الفنانة الجورجية العالمية تمارا كفيسيتادزي عام ٢٠١٠، بطول يبلغ ثمانية أمتار من الأسلاك المعدنية الصلبة، ليخلّد قصة حبّ اشتعلت شرارتُها وجرت أحداثُها بين ١٩١٨ و١٩١٩، أي زمن الحرب العالمية الأولىٰ، تناولها الأدب كرواية، والفنّ كفيلم سينمائي، وتحكي عن مدرّس أذربيجاني مسلم شيعي يُدعىٰ (علي خان) يقع في غرام الأميرة الجورجية المسيحية (نينو كيبياني)، وترصد العراقيل والعقبات التي واجهت

تحقيق حلمهما في زواج يجمع الشرق بالغرب والشامي بالمغربي، معيدة إلىٰ الأذهان قصص الحب الخالدة بين الثنائي روميو وجولييت، وقيس وليلىٰ، وعنترة وعبلة.

أمّا برج تشاتشا، فهو برج بُني عام ٢٠١٢ بتكلفة مليون لاري، تعلوه ساعة كبيرة، وتحيطه نوافير من جهاته الأربع، ارتفاعه ٢٥ مترا، وسُمّي علىٰ اسم نبيذ جورجي شعبي يُصنع من العنب بنسبة كحول تتراوح بين ٤٠-٦٥٪، ولعلّه إشارة إلىٰ قيمة الوقت باعتباره هو الحياة، وذلك علىٰ قول أمير الشعراء شوقي:

"دقّاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ لـه
إنّ الحياةَ دقائقٌ وثواني"

وغير بعيد من الشاطئ، يقع منتزَه ٢٦ مايو المغطَّىٰ بمسطح أخضر طبيعي يانع، تتوسّطه بحيرة رائعة هادئة علىٰ يمينها حديقة حيوان تلهو فيها القرود والغزلان وغيرها من أليف الحيوانات، وحول البحيرة ممشًىٰ يدغدغ الروح ولكن بشرط غضّ البصر عن اللحم الأبيض الممدَّد علىٰ العشْب بلا رقيب ولا حسيب!! وفي القلب من المنتزَه، دولفيناريوم باتومي الذي يعرض قدرة البشر علىٰ

التواصل مع الحيوان وتدريبه بذكاء ولطف لِيأتي بما يشبه الخوارق من استجابة سريعة تدلّ علىٰ فهم وإدراك، وحركات راقصة تنمّ عن ذوق وإحساس، وهو ما شاهدناه في عرض الدلافين المبهِر الذي حاز علىٰ إعجاب ابنتي حدّ الهوس، خاصة حين تبارت الدلافين الثمانية في قذف الكرات علىٰ الجمهور ثم التقاطها، وفي دفع الماء بذيلها القويّ العريض ليبلّل الصفوف الأمامية وسط موجة عارمة من النشوة والفرح، ومن هذا العرض تعلّمْت كلمة (تاش) التي صدّع

المذيع الداخلي رأسي من كثرة ترديدها ومطالبة الجمهور بالمزيد منها، وتعني في اللغة الجورجية (تصفيق).

وتاريخ ٢٦ مايو الذي اتّخذه المنتزَه عنوانا له، يوافق عيد الاستقلال الجورجي الأوّل عن روسيا عام ١٩١٨ علىٰ خلفية انشغال الروس بتداعيات الثورة البلشفية وما نجم عنها من حرب

أهلية بين الجيشين الأحمر والأبيض، وهو الاستقلال الذي لم يمكث سوىٰ ثلاث سنوات، إذ ضمّتْها بعدها روسيا إلىٰ قبضتها بالحديد والنار، قبل أن تعيد جورجيا الكَرّة وتحصل علىٰ استقلالها الأخير في ٩ أبريل عام ١٩٩١، وكثيرا ما يُخطئ البعض بقولهم منتَزَه ٦ مايو، وخاصة دعاة اليوتيوب ممّن يتداولون المعلومات دون تمحيص.

وما يُقال عن الدلافين يُقال عن مياه النافورة الراقصة، التي أضاء المهندسون حولها المكان كعروس علىٰ أهبة الزفاف، ثمّ رقّصوها علىٰ أنغام الموسيقىٰ الصادحة كفتاةٍ باليه ماهرة، وجعلوها تقفز لعشرات الأمتار كأنّها في سباق مع لاعبات القفز بالزان!

ولمُحبِّي الطبيعة -ومَن منّا لا يحب الطبيعة!- يتوجَّب زيارة حديقة النباتات في موقعها المميَّز علىٰ البحر الأسود، لِمَا فيها من غرائب الأشجار والزهور والنباتات التي تمّ جلبها من شتّىٰ أرجاء المعمورة، آسيا واستراليا والأمريكيتين وحتىٰ إفريقيا، وعلىٰ كلّ منها بطاقة أشبه بسيرة ذاتية مختصَرة، تعطيك فكرة موجَزة عن

الاسم وبلد المنشأ. الحديقة تأسَّست عام ١٨٨١ على يد أحد علماء النبات الجورجيين، وعلى مساحة شاسعة بلغت ١١١ هكتارا، تضمّ إلى جانب النباتات، الكثير من البرك والنوافير والمنحوتات وأماكن الجلوس. ومع أنّ المشي في ممرّاتها الصاعدة مرهِق قليلا لأمثالي من الشباب الذين قاربوا الستّين، ولكنه غاية في المتعة وسط أجواء هادئة ساحرة تغريك بقضاء اليوم بكامله بين جنباتها ولن تكتفي، ولِمَن أعياه التعب، يمكنه ركوب إحدى العربات الطوّافة المتوفِّرة تحت الطلب.

وخارج سياق البرنامج، الذي يحفل كغيره من البرامج السياحية بالأنشطة الترفيهية ووسائل التسلية، وقلّما يلتفت إلى الثقافة والمعرفة كجزء من السياحة، استأذنْت السائق في زيارة متحف الفن التشكيلي، وواضح أنه لم يكن على علم بمكانه رغم باعه الطويل في العمل بالسياحة، وكم كان جَوادا حين اتصل بصديق له من أهل المدينة ليدلّه عليه، وإذ بنا نكتشفه قريبا جدّا من الشاطئ في وسط المدينة. وفي أجواء هادئة لا تسمع فيها لاغية، ووسط عرض أنيق يليق بالفنّ الرفيع الرقيق، طفْنا بين مئات من اللوحات رسمها فنّانون من مختلف دول العالم، وجيّد أن دُوِّن بالإنجليزية على كل لوحة ما

ينير جبهتها من حيث موضوعها وتاريخها والفنّان الذي أبدعها. وإلىٰ جانب اللوحات التي اصطفّت بنظام محكَم علىٰ الجدران، عُرضت منحوتات بديعة التكوين ومتنوّعة الأشكال والموضوعات، بعضها من الخزف وبعضها من المعدن وثالثة من الحجر، علىٰ اعتبار أن الرسم والنحت توأمان، وإن كان النحت أسبق تاريخيا..وللأسف لم نجد ما يُعيرنا الانتباه من مرشد خبير يصحبنا كعادة كلّ المتاحف، ربّما لأنّ اللوحات والمنحوتات تعبّر عن نفسها بما هو مكتوب تحتها!

غرائب وعجائب

شلال ماخونسيتي

السياحة مغامرة، ولا تخلو المغامرات من بعض الغرائب والعجائب التي هي آخِر ما ينصرف من الذاكرة بعدما يصيبها التلف وتتّسع ثقوبها كالمصفاة والغربال..

ومن ذلك، أنّني وعلىٰ عتبات بوّابة دير جفاري القريب من مدينة متسخيتا في الشرق الجورجي، ناداني رجل أربعيني بيده كوب بلاستيكي يستجدي فيه السيّاحَ بعض المال، وسألني: سعودي؟ قلت: لا، بل مصري.. فانطلق يقول بلهجة عربية واضحة ومفهومة ولكنها كجيْبه مكسورة: محمد صلاح، مِيَّهْ مِيَّهْ ولا فِراخ الجمعيّة..فبشْشت له وضحكْت، إذ لا وجود الآن للدجاج ولا للجمعية، وليت محمد صلاح يقرأ هذا ليفرح بمشجّعيه في كلّ مكان.

وأثناء خروجنا من وادي مارتفيلي الذي زرناه في طريق عودتنا من مدينة باتومي إلىٰ العاصمة تبليسي، لحقني شابّ وبيده صورة مصغَّرة لي بجوار الشلّال أَوْدعها داخل ميدالية، وكذلك لزوجتي،

عارضًا بيع الواحدة منها بـ ١٠ لاري..فعجبْت: متىٰ صوّرني؟ وكيف غافلني بالتصوير دون علمي؟ ومتىٰ أجرىٰ تعديلاته علىٰ الصورة حتىٰ خرجَت متقَنة علىٰ هذا النحو؟!

والوادي لمَن لا يعلم، يقع في منطقة ساميجريلو أحد المناطق الجورجية التسعة تبعا لتقسيمها الإداري، بعيدا عن العاصمة تبليسي بنحو ٢٨٠ كيلومترًا، وأعجب ما رأيته فيه شلّاله الضخم الذي يرتفع إلىٰ اثني عشر مترا، تندفع مياهه بقوّة محدِثة خريرا كزئير الأسود يُدوّي في جنَبات الوادي وتسمعه من علىٰ بعد أمتار.

وفي منطقة شلّال ماخونسيتي العجيب والبعيد عن مركز مدينة باتومي بنحو ثلاثين كيلومترا، لفت نظري بل ونظر كلّ زوّار الشلّال، تلك الحفرة المربّعة المُغطّاة بشبكة من السلك، والمغلَقة بقفليْن، وفي قاعها عملات معدنية كثيرة جدّا من فئة ١ أو ٢ لاري، مع قليل من العملات الورقية فئة ٥ لاري، وتقول الخرافة، أنّ من يضع فيها نقودا من السيّاح، لا بد أن الحظ سيسعده بالعودة، وذلك علىٰ طريقة المَقولة المصرية الذائعة: مَن يشرب ماء النيل كُتبت له العودة إلىٰ القاهرة مرّة بعد مرّة!

أمّا جسر العشّاق؛ فمَعلم شهير يقع في البلدة القديمة بمدينة تبليسي، وعلىٰ جانبيه سياج مليء حتىٰ الحلقوم بأقفال كُتبت عليها أسماء الأزواج والزوجات بعدّة لغات، منها بالعربية: فهد يحبّ سماح، خلف يحبّ مريم، خالد يحبّ فطوم، نوف تحبّ صالح، وعواطف تحبّ محمد.. بعض الأقفال من النوع التقليدي الرخيص الثمن معلَّقة بكثافة علىٰ جسر منفصل لم يَبقَ فيه موضع لمزيد، وبعضها أرستقراطي لونه أحمر يأخذ شكل القلب ومعلَّق علىٰ جسر ثان يقول: هل من مزيد. ويعتقد هؤلاء وأولئك، وكلاهما من الغافلين، أنهم بوضْع تلك الأقفال يجدّدون العهد ويضمنون دوام حبّهم إلىٰ الأبد، حتىٰ لو أصاب الصدأ أقفالهم جرّاء رذاذ مياه الشلّال الذي يهدر في جوار قلعة ناريكالا الأثرية العتيقة. ومثل هذه الأقفال رأيتُها معلَّقة علىٰ جسر ثالث فوق نهيْر أو جندل في منتزَه المياه المعدنية بمدينة بورجومي والذي يعود تاريخ إنشائه –أي المنتزه– إلىٰ عام

١٨٥٠م، وفيه ذقْت مياهًا معدنية متدفّقة دون حفْر أو ضخّ، بل واستشْفيْت بها من احتقان بالحلق عبر الغرغرة حسبما نصحني السائق الذي مثّل دور الطبيب وكنت له خير مريض مطيع.

ومن الحُبّ والحياة فوق جسور العشّاق، إلىٰ اليأس والموت الذي يُولد فوق جسور أخرىٰ معلَّقة طالما استمتعْنا بها كسيّاح والتقطْنا علىٰ متنها عشرات الصور، وذلك بعدما باتت مسرحا لبعض حالات الانتحار. وفي هذا أعجبني ما تفتّق عنه الذهن الجورجي من توظيف الفنّ كأداة وقائية تمنع أو تقلّل مثل هذه المآسي علىٰ أحد جسور نهر كُورا الرابط بين شطْرَي العاصمة تبليسي، وذلك عبْر ما رأيته من ثلاثة تماثيل بأحجام كبيرة تُرىٰ من بعيد، واحد لشاب بائس علىٰ أهبة الاستعداد للانتحار غرقًا عبر القفز في الماء، وثانٍ لامرأة فزِعة تنظر إليه صارخة مولْولة متوسّلة وتكاد عيناها تبرز من مَحْجَرَيْها[1]، وثالث لشاب مفتول العضلات يسرع ويهمّ لمنعه وإنقاذه.

(١) مَحجَر العين: تجويف عظمي يحتوي العين وملحقاتها من الأعصاب والعضلات والأوعية الدموية، ويتشكل على هيئة هرم من اجتماع سبع عظمات .

واستغلالًا لهوس السيّاح بالتقاط الصور، حتىٰ ليلتقط أحدُهم ٩٩٩٩٩٩٩٩ داخل مَعْلم سياحي واحد، تجد حيلا لطيفة للتكسّب وغالبا ما يقع السياح ضحية لها دون إجبار، ولست استثناءً من هؤلاء..

فأمام خلفيّة جميلة للنهر والجبل والخُضرة، صنع أحدُهم قلْبا كبيرا، ثمّ زيّن حوافه بالورود الحمراء والبيضاء، وعلىٰ مَن يرغب في تمثيل دور العشق من الزوجيْن، أن يطلّ داخل هذا القلب ويحصل علىٰ صورة نظير ٢ لاري أو أكثر أو أقلّ. وبمبلغ آخر في مَعْلم ثان، يمكن الحصول علىٰ صورة في زيّ شعبي جورجي يُلبَس لدقيقة وسط أجواءٍ باسمة ماتعة.

وأذكر في حديقة متاتسمندا بتبليسي، وعقب انتهائنا من ركوب عجلة فيريس أو دولاب الهواء العملاق، أن عرض علينا شاب التقاط بعضَ صور احترافية بينما نمسك بمجسّمات لِما يميّز جورجيا من أطعمة ومعالِم شهيرة، وعند استلام الصور التي ذكر أنها بالمجان، إذ بها صورة واحدة صغيرة كعلبة الكبريت لا تُشبع العين،

وحولها بدأت مساومات التجارة الذكية، إن أردْتَ صورةً أكبر أو رغبْتَ أكثر من صورة أو أردتَها داخل إطار أو ميدالية، فعلىٰ الرحب والسعة ولكن أَرِني محفظتك.

ومن الصور اللطيفة المدفوعة الثمن، تلك التي التقطها لي أحدُهم داخل قلعة أنانوري، في زيّ محارب من القرون الوسطىٰ، صديْريّة ودرع وسيف وخوذة، الزيّ ثقيل للغاية لأنه من الفولاذ، ولا أدري كيف كان الجندي يمشي ويركض ويقفز ويناور في الميدان وهو ينوء بهذه الأحمال التي تزن عشرات الكيلو جرامات، أظنّها كانت أقصر الطرق لهزيمة الجنود آنذاك.

وبصدد الأزياء والملابس، لن أنسىٰ أحد شوارع برجومي وقت تفقّدنا لمكان المتحف المحلّي هناك، وما رأيته فيه من ملابس مغسولة ومنشورة في عرض الشارع علىٰ أسلاك تصل بين الأدوار

العليا! ولا عجب، فمَن علّق السيّاح علىٰ أسلاك بين الجبال عبر التليفريك، لن يُعجزه تعليق الملابس علىٰ هذا النحو العجيب.

وما زلنا مع الملابس، ولكن هذه المرّة أثناء التجوال علىٰ شاطئ باتومي، حين أشار السائق اللئيم إليّ قائلا: منير، اقرأ هذه! ولم يكن ما قرأته سوىٰ عبارة سبّ وإهانة لاذعة للرئيس الروسي الحالي فلاديميربوتين، نُقشت علىٰ فانلات شبابية معروضة للبيع في إحدىٰ المحال، وذلك تعبيرا عن العداء المتنامي تجاه الروس عامة، ولا أدري إن كان من اللائق ذكر العبارة[1] أم لا؟

وعلىٰ ذكر هذا العداء، رسَت في ميناء باتومي يوم الحادي والثلاثيين من يوليو ٢٠٢٣م، سفينة روسية تحمل سيّاحا من الروس بينهم فنّانين معروفين، تجوب موانئ البحر الأسود حاملة شعارات مؤيّدة لحرب روسيا علىٰ أوكرانيا، وكان في انتظارها المئات من الجورجيين المنددين بالحرب والحاملين لأعلام أوكرانيا، وتطوّر الاحتجاج إلىٰ محاولات لمنع هؤلاء السيّاح من مغادرة السفينة إلىٰ الباصات التي تنتظرهم علىٰ الشاطئ للتجوال في المدينة، ممّا حدا برجال البوليس إلىٰ اعتقال العشرات منهم. وبعدما طار الخبر

(١) تقول العبارة : Fuck putin

وتسامعت به وكالات الأنباء، حذّرت السلطات الخليجية رعاياها في مدينة باتومي بأخذ الحيطة والحذر والابتعاد عن بؤرة الاشتباك الساخنة.

ولن ينقضي عجبك من هذا العدد المَهول من الكلاب الجورجية السائبة، لاحظتُها أمام المطار، وعلىٰ باب متحف ستالين، وفي شارع الفندق، وداخل المزارات السياحية، بل إنها دخلت الاستاد الرياضي الرئيسي ذات مرّة وتعطّلت بسببها المباراة. وأُطمْئنُك أنها هادئة وادعة، لا تهشّ ولا تنشّ، ولا تنبح ولا تعضّ، وهذا طبيعي؛ لأنها لا جائعة ولا خائفة ولا كادحة؛ إذ يُطعمها الجميع من أنفس ما في يديه، ولا ينهرها أحد ولو بكلمة، ولا تُكلَّف بحراسة أو صيد، وتخضع لإشراف صحّي بيطري! بمعنىٰ أنها كأولاد الذوات المترَفين: أكل ومرعىٰ وقلّة صنعة، ولذلك تراها بدينة أليفة كسولة، وكأنها قطط لا كلاب! وإذا كان للكلاب فردوس فلن يكون سوىٰ جورجيا.

وهنا أشير إلىٰ تناقض غريب عايَنْتُه في فندق كريستال بناحية باكورياني أثناء تفقّدي للخدمات الإضافية التي أتاحها الفندق، كالجيم والجاكوزي وحمّام السباحة والمَساج، لمجرّد العلم بالشيء

لا أكثر. فأثناء حديثي مع المسؤولة عن قسم المَساج، والتي أخبرتْني أن القائم علىٰ التدليك امرأة، إذ بسائح عربي ومع زوجته المنقَّبة، والنقاب في الخليج أكثره عادة وليس التزاما، وفي كلٍّ خير، وبينما وقفَت الزوجة عند المدخل تنتظر، إذ به يندفع إلىٰ غرفة التدليك وكأنّه بالمكان خبير، ولمّا نادتْه المسئولة قائلة: المُدلِّك امرأة، وظنّته سيستنكر ذلك مثلي وينصرف، أجاب: نعم أعرف، ثمّ واصل طريقه إلىٰ حيث يريد!

وقريبًا من تمثال أمّ الجورجيين علىٰ شاطئ نهر كورا في العاصمة القديمة تبليسي، لفت نظري شاب يجلس علىٰ كرسي مرتديا نظارة سوداء ومنخرطا في العزف علىٰ عود، بعدما وضع أمامه صندوقا لجمع المال وبجوار الصندوق لوحة مكتوب عليها: أنا أجمع المال لشراء لاب توب أعمل عليه.

ولأننا نخضع لقيود أخلاقية لا يمكننا التحلّل منها أينما كنا، ولقيود اجتماعية يمكننا التحلّل منها حال سفرنا وغربتنا إعمالا للمثل القائل: البلد التي لا تُعرف فيها افعل ما يحلو لك فيها..فقد ضربْت عرض الحائط بكل ما هو مألوف، وأقدمْت مع ابنتي علىٰ

ركوب اللعبة الدوّارة التي تطوّحك عاليا في الهواء، وتسرع بك حتىٰ تكاد تفقد الاتّزان، وأذكر أن الرجل القائم علىٰ اللعبة أُسقط في يده حين رآني أتقدّم -وأنا الخمسيني علىٰ مشارف الستين- وسط الصبية والبنات لتجربة هذه اللعبة، ولم يكن بوسعه طبعا منْعي.

ومن طرائف الحُكم الجورجي القديم، ما رواه د. فتحي اللهيبي في كتابه (مملكة جورجيا في العصور الوسطىٰ)، من أنّ المَلِك جورج الرابع ابن الملكة تمارا تُوفّي عن وريث شرعي للمُلْك هو ابنه دواود السادس، ولمّا كان داوود دون سنّ البلوغ، فقد تولّت عمّته روسودان المُلك علىٰ أن يعتلي عرشَه بمجرد بلوغه، ولكنها وبدهاء الساسة نكصَت العهد وانقلَبت كالجنرالات فنصّبَت ولدها ملِكا، وهنا نشب خلاف عميق بين القريبين الحميمين احتكموا فيه إلىٰ المغول أصحاب الحلّ والعقد في المنطقة آنذاك، فشطروا البلاد كالبيتزا نصفيْن، لهذا شطْر يحكمه ولذاك شطر يحكمه أو يأكله لا فرْق!

المَقامة الجورجيّة

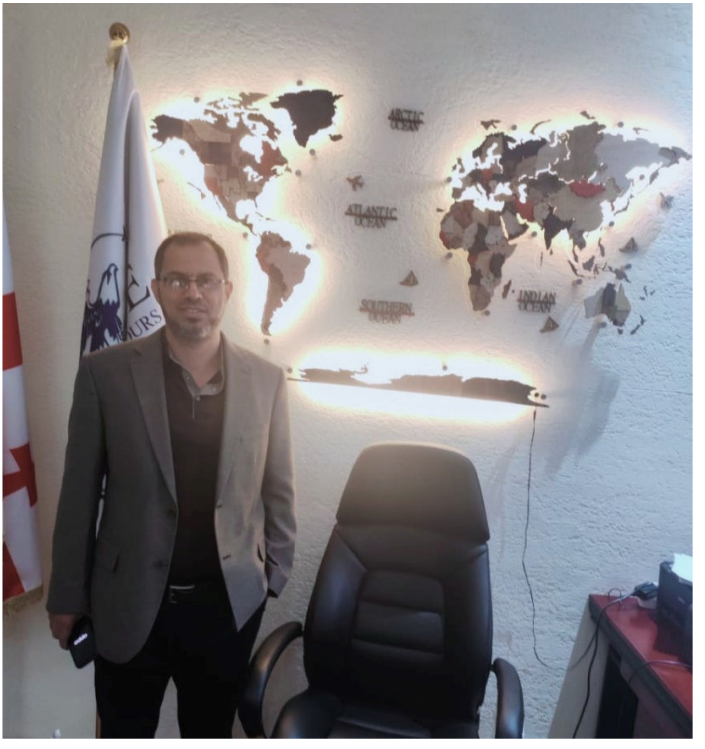

المؤلّف داخل مقر الشركة السياحية في العاصمة تبليسي

حدّثَنا أبُقْراط بن قحطان قال:

في الشهر السابع تموز، ويسمّيه الغرب يوليوز. بلغ الصيفُ ذرْوتَه، واشتعلَت كالنار جذْوته. حتىٰ باتت الشمس كالتنّور، وذهب الظلّ وبقي الحَرور. فالتهب الجوّ في سلطنة عمان، وهرب الناس إلىٰ تركيا وأذربيجان. ومنه هاجت أُمّ العيال وماجت بشدّة، ونكشَت شعرَها وصرخَت بحدّة. سنذوب يا بعْلي كالشموع، وتجفّ من عيوننا الدموع. النجدة يا سِيدَ الرِّجال، ودعنا نرحل في الحال. علىٰ ألّا نعود إلّا بانقضاء هذا التموز، الذي يُغلي الماءَ في الكُوز. فأعجبني أن أكون للرّجال سيّد، ولجبْر الخواطر مثَل جيّد. وقلْت قُومي بنا إلىٰ المطار، نلحق بجارنا حيث سار. ففي الأسفار خمس فوائد، علىٰ قول الإمام الرائد:

تَغـرَّب عـن الأوطـان في طلَـب العـلا
وسـافِر ففـي الأسـفار خمـس فوائـدِ
تفـريجُ هـمٍّ واكتـسابُ معيـشة
وعِلـمٌ وآدابٌ وصـحْبة ماجـدِ

وفي طيران العربية، بدأْنا رحلتَنا الجويّة. من مسقط الوادعة الهادئة، إلىٰ الشارقة جارتها الهانئة. وبعدما مغصَت البطنُ من الجوع، ناديْتُ علىٰ المضيفة في خشوع. ورجوتُها التعجيل بالغداء، واشترطْتُ مع اللحم حساء. وفاكهة لا تقلّ عن ثلاثة أصناف، وعصيرا طازجا تسبح فيه الألياف. فصدمتْني بخبر أفدح من عقْر ناقة صالح، بقولها أيّ غداءٍ يا فالح؟! هنا الوجبات بالدرهم أو الدولار تُشترىٰ، وإنْ شئتَ أتيتُك بقائمة الأسعار لتَرىٰ. قُلْت ألهذا الحدّ بلغ بكم الإفلاس؟ ذَريني إذَن أداوي الجوعَ بالنعاس.

يقول ابن قحطان:

وبعد ثلاث ساعات من التحليق فوق السحاب، رأينا فيها من آيات الله العجب العجاب. إذ بزوجتي تغمزني بسبابة كمهماز، لتُريني من خلف النافذة جبالَ القوقاز. ففهمْت أنّنا وصلنا وجهتَنا، وحان فكّ الأحزمة والتقاط حقيبتَنا. بشغف وشوق وقفْنا كالجنود أمام شرطيّة، لتمنحنا تأشيرةَ دخول الأراضي الجورجية. ولكنّها بعدما ختمَت جوازَي سفر زوجتي وابنتي، توقّفَت مَلِيًّا أمام صورتي ولحيتي. هنا فرقٌ أوضح من شامة، صورتُك في الجواز تختلف عن الإقامة؟! ثمّ أحالتْني ببرود إلىٰ رئيسها الضابط، وقطَعَت ما بيني

وبين أسرتي من رابط. إذ عبرَت هي سالمةً إلىٰ العاصمة تبليسي، بينما بات الشكّ والاتّهام جليسي. وبعد سيل من الأسئلة المراوِغة، والتحديق بعيون زائغة. وكأنّي بن لادن بُعث من جديد، لغزوهم بالنار وبالحديد. قال الضابط لا بأس من الدخول، بعد إتمام إجراءات الوصول.

يقول أُبُقراط:

وعلىٰ مدار تسعة أيام بلياليها، حرثْنا جورجيا عالِيها وواطِيها. فجُبْنا مدن تبليسي ومتسخيتا وبرجومي، وبوكارياني وكوتايسي وباتومي. وعاوننا السيّد (كِيلا) السائق، علىٰ رؤية جمال جورجيا الفائق.. جوّ لطيف، وشجَر كثيف. ظلّ ممدود، وطلْح منضود. وعنب لذيذ، يصنعون منه -للأسف- النبيذ. ومراعٍ خضراء للعين تبدو، كالسندس فوقه الأغنامُ والخيلُ تعدو. وبحيرات ماؤها فيروز، تعيد الشباب للعجوز. وبرؤيتها تبرأ العين من عتامة، لترىٰ أبعد من زرقاء اليمامة. وحول الطرقات أسرابُ الأبقار، تسرح في زهْوِ الأحرار. ولا يخلو مكانٌ من كلاب، يدلّلها الناسُ في الذهاب والإياب. والأنهار بالعشرات تجْري، كالعروق في الجسم تسْري.

وللشلّالات من فوق الجبال هدير، للنفس يَسُرّ وللعين قرير. وإلىٰ الفنّ والتاريخ تَرمُز. مئات من التماثيل في الميادين تَجْمِز[1].

وبين المرتفعات تليفريكات معلَّقة، تسير علىٰ أسلاك كطيور محلِّقة. ومن الفاكهة صنعوا شورشخِيلا، أوصانا بها السائق كِيلا. وهي نوع فريد من الحلويات، اختلطَت فيها الفاكهة بالمكسّرات. وثمنها لا يتعدّىٰ بضعة لارِيات، يتداولها الجورجيون بدل الدولارات.

ولأنّهم بالأرثوذوكسية يَدينون، والمسلمون جدّ قليلون. فكالجراد تَكثر الكنائس والصوامع، وبالكاد تَعثر علىٰ جامع. وإن كان التسامح بين الأديان الغالِب، وقلّما تجد للعنصرية طالِب. ومن الناحية السياسية، يرفلون في حريّة وديمقراطية. ويسعون باليدَيْن والأسنان، لنيل العضويّة الأوروبية في أقرب زمان. ولكن الدبُّ الروسي لهم بالمرصاد، وسيعرقل سعْيهم بالعناد أو الزّناد. وما أوكرانيا الجارة عنهم ببعيد، في حربٍ ضروس لا زالت رحاها تقول هل من مزيد!

(١) جَمَز، بمعنى وثب أو أسرع، ويقال جَمَز الفرس، أي سار سيرا أقرب إلى العدْو .

وذات يوم قصدْنا بلدة (جُوري)، بعدما تغدّينا خِينكالي وخاشابُورِي. فزرْنا فيها متحف ستالين، الذي حكم روسيا بقبضةٍ لا تلين. فسجَن وقتَل من الآلاف مِئين، حتىٰ عُدّ من أكابر المجرمين. وهو الآن في حضْرة مولاه. يجازيه بما اقترفَت يداه. ولو أَغنىٰ نوحٌ عن ابنه الذي كفَر، لَما أَغْنَت عنه شهرة بها ظفر.

وعقب سفرٍ بالسيارة بعيد، كمَن يُسافر إلىٰ قلْب الصعيد. وصلْنا مدينة باتومي الساحرة، الجالسة كعروسٍ في ثياب فاخرة. علىٰ شاطئٍ مديدٍ ينضح بالغنْج والدّلال، زاده البحرُ الأسود جمالا فوق جمال. فهُنا علي ونينو يتعانقان، وهناك برجُ الحروف يشقّ العنان. ونوافير الماء علىٰ الأنغام ترقص، والسيّاح في بهجةٍ تَزيد ولا تنقص. وها هم العرب والأعاجم متكالبين، يحجزون تذاكر عرض الدلافين. ولبديع ما في هذا العرض من فنّ، كادت ابنتي آية تُجَنّ. إذْ وقفَت تصفّق وتصفّر للدلافين، وترسم بيديها قلوبًا للمدرّبين. وفي حديقة النباتات، صنوفٌ ترطن بكلّ اللغات. هذه من أفريقية واستراليا، وتلك من أندونيسيا وبريطانيا. وصدق مَن قال، واصفًا الحال. لا تكتفي بما تسمع بأذنيْك، بل اذهب لترىٰ بأُمّ عينيْك.

وأذكر أنّي بحديقة (باتومي) مررْت، فأبصرْت وليتني ما أبصرْت. فتاةٌ علىٰ العشب مستلقية، سيقانها وأفخاذها عارية. وسَوْأتُها من السروال بادية، وما أدراك ما هِيَه! وبجوارها شاب أملس رقيع، من رأسه إلىٰ قدميه خليع. بيدٍ في شعرها الأشقر راح يصول، وبالأخرىٰ في جسدها يجسّ ويجول. ومن آنٍ لآخَر يتباوسان في حرارة، كأنهما في بيت دعارة. وزِدْ علىٰ ذلك من صنوف العبَث، ما تشمّ فيه رائحة الخبَث. وكلّ ذلك في وضح النهار، أمام أعين النظّار. وساعتها وددتُ لو اسْتطَعْت، علىٰ قفاهما صفعْت. وبسوط الحجّاج ضربْت، ظهرَهما فأَوْجعْت وأَلهبْت.

يقول أبقراط بن قحطان:

وجريًا علىٰ الناموس، الذي للناس يَسوس. مِن أنّ لكلِّ سفَر بداية، ولكلّ رحلةٍ نهاية. فقد عُدْنا لعُمان والعوْد أحمد، ولله وحده نشكر ونحمد. بعدما جدّد السفَر فينا الطاقة، ومنحَنا مزيدًا من اللياقة. واتسعت آفاقنا بمعارِف، واكتسبْنا أصدقاء جدد بالتعارف. والله سبحانه أسأله، أن يبارك العمل ويقبله. ويغفر لنا ما سلَف

وفات، ويوفّقنا فيما هو آت. وخير كلامٍ في الختام، ما قاله الشافعيُّ الإمام:

سافِر تجد عوضاً عمّن تفارقه،
وانْصَب فإنّ لذيذَ العيشِ في النَّصَبِ.
إني رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسده،
إنْ ساحَ طاب وإن لم يجْرِ لم يَطِبِ.
وَالأُسدُ لَولا فِراقُ الأَرضِ ما اِفتَرَست،
وَالسَهمُ لَولا فِراقُ القَوسِ لَم يُصِبِ.
وَالشَمسُ لَو وَقَفَت في الفُلكِ دائِمَةً،
لَمَلَّها الناسُ مِن عُجمٍ وَمِن عَرَبِ.

الخاتمة

لماذا نسافر؟

وما فائدة التجوال في الأرض إذا كان بإمكانك السياحة في ربوع الأرض برًّا وبحرا وجوًّا بينما أنت جالس علىٰ كرسيّك الوثير أمام شاشة علىٰ جدار غرفة مكيَّفة؟

عن هذا أجاب أ. سيّد قطب مرّتيْن:

– مرّة في كتابه (كتب وشخصيات) حين قال: "في قرارة كل نفس إنسانية سندباد أو شعرة من السندباد، ولو لم يطوِّف مثله في بحار الأرض ويتعرّض في طوافه لشتىٰ الأخطار. وكم من سندباد ظاهر قاد كولومبوس وفاسكو دي جاما وماجلان وابن بطوطة وسواهم، وكم من سندباد خفيّ قاد العلماء والمخترعين إلىٰ آلاتهم ومعاملهم، وقاد

الفلاسفة والفنانين إلىٰ مغامراتهم الفكرية والوجدانية؟ إنه سندباد واحد تتعدّد مظاهره ونوازعه في شتىٰ النفوس، أو سندبادات كثيرة موزَّعة في هذه النفوس التي تركب الخطر وتستلذّ المجازفة وهي تُلقي بوعيها كلّه أو بعضه إلىٰ ذلك النداء السحري، نداء المجهول الذي يهتف بها من هناك..

- ومرّة في تفسيره لقول الحقّ سبحانه:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾[1]، فكتب في ظلاله:

"السيْر في الأرض يفتح العين والقلب علىٰ المشاهد الجديدة التي لم تألفْها العين ولم يملّها القلب، وتلك لفتة عميقة إلىٰ حقيقة دقيقة. وإنّ الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلىٰ شيء من مَشاهده أو عجائبه؛ حتىٰ إذا سافر وتنقّل وساح، استيقظ حسُّه وقلبُه إلىٰ كلّ مَشهد، وإلىٰ كلّ مظهر في الأرض الجديدة، ممّا كان يمرّ علىٰ مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه. وربّما عاد إلىٰ موطنه بحسّ جديد وروح جديد لِيبحث ويتأمّل ويَعجَب بما

(١) العنكبوت ٢٠.

لم يكن يهتمّ به قبل سفره وغيبته. فعادت مشاهدُ موطنه وعجائبها تنطق له بعد ما كان غافلا عن حديثها؛ أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه!"

بطاقة الكاتب

- منير لطفي محمّد علي
- مواليد ريف الدقهلية بجمهورية مصر العربية (قرية كفر الروك، مركز السنبلاوين) ديسمبر ١٩٦٥ م
- متزوّج وله خمسة أنجال (إسراء، أنفال، آية، أسامة، أحمد).
- تَخرّج في كلية طبّ المنصورة ١٩٨٩م (جيد جدا مع مرتبة الشرف)
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق ١٩٩٦م (جيد جدا)
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز)
- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية

* عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
* مشرف صفحة أقلام بيضاء في جريدة الديوان الجديد الأدبية الشهرية
* له مقالات عدّة منشورة بالجرائد والمجلّات الورقية (الوعي الإسلامي الكويتية-اللواء الإسلامي المصرية-الجمهورية المصرية-الرؤية العمانية)، وكذلك المواقع والصحف الإلكترونية (المنار الثقافية الدولية- المثقَّف-الأمّة الإلكترونية-دنيا الوطن-منار الإسلام-صوت العروبة-الجزيرة نت- العربي الإلكترونية-وغيرها)..
* نال تكريم كلية طب المنصورة في يوم الأطباء الأدباء عام ٢٠٢٣، وتكريم منصة الباحث العربي العالمية (أريد) في يوم الشعر العربي عام ٢٠٢٢
* صدَر له:

١- أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، ٢٠١٦

٢- طريقك إلىٰ التميّز، دار عالم الثقافة، ٢٠١٧م

٣- رحلتي مع مرض السكري، دار اليقين، ٢٠١٨م

٤- مفاتيح القراءة، دار اليقين، ٢٠١٨م

٥- بستان العافية، دار اليقين، ٢٠١٨م

٦- حياتنا بعد الستين، دار مدارك، ٢٠١٩م

٧- معا نرتقي، دار ألوان، ٢٠٢٠م

٨- علىٰ خطىٰ لقمان، دار ألوان، ٢٠٢٠م

٩- مقامات أبقراط، دار البشير، ٢٠٢٠م

١٠- مشاهير في ذاكرة المرض، الدار البحرينية المصرية، ٢٠٢٠م

١١- أحسن تأويلا، دار عالم الثقافة، ٢٠٢١م

١٢-حكايات من دفتر الحياة، دارألوان، ٢٠٢٣م

١٣-رواق الحكمة، حوارات في الفكر والطب والأدب، دار ألوان، ٢٠٢٣م

١٤-نور علىٰ نور، دارألوان، ٢٠٢٣م

١٥- قولا كريما، رسائل قصيرة علىٰ درب البصيرة، دار ألوان، ٢٠٢٣م

١٦-أمالي الغزالي، دار البشير، ٢٠٢٣م

١٧- يوميات طبيب بلغ المشيب، مطبوعات دحروج، ٢٠٢٣م

١٨- لطائف أدباء العصر، ٢٠٢٣م

١٩-علاوة علىٰ كُتب أخرىٰ مخطوطة قيْد الإعداد والتهذيب

فهرس الصور

١-قلعة الرباط-أخالتسيخي ١٣
٢- ابنتي آية في الزيّ الجورجي القديم ٢٠
٣-مسجد تبليسي-المدينة القديمة.....٢٧
٤-مسجد باتومي ٢٩
٥-تمثال الملك ديفيد-تبليسي.....٣٦
٦-نهركُورا-جسر السلام الزجاجي-تبليسي ٣٩
٧-شطّاف يدوي.....٤٥
٨-شُوتا روستافيلي ٤٩
٩-ورقة مالية من فئة مائة لاري عليها صورة شوتا روستافيلي ...٥٠
١٠-ناطحة سحاب بيلتمور-تبليسي ٥٢
١١-بحيرة السلاحف-تبليسي.....٥٨

١٢-زِيبْلاين بحيرة السلاحف-تبليسي.....٦٤
١٣-مطار تبليسي.....٧١
١٤-خريطة جورجيا.....٧٧
١٥-العسل الجوروجي.....٨١
١٦-تمثال أمّ الجورجيين-تبليسي.....٨٧
١٧-تليفريك العاصمة تبليسي-نهر كُورا.....٩٥
١٨-ميدان الحرية-تمثال القديس جورج-تبليسي.....١٠٣
١٩-متحف ستالين-مقصورة القطار-جوري.....١٠٥
٢٠-تمثال ستالين-متحف ستالين.....١٠٩
٢١-بيت ستالين-متحف ستالين.....١١٠
٢٢-خاشابوري أدجارولي-مطعم بلاك سي-باتُومي.....١١٧
٢٣-خِينكالي.....١٢١
٢٤-شُورشخيلا.....١٢٣
٢٥-عجلة فيريس-متاتسمندا بارك-تبليسي.....١٢٩
٢٦-برج الاتصالات-متاتسمندا بارك-تبليسي.....١٣٢

٢٧-دير جفاري-متسخيتا ١٣٣
٢٨-برج الحروف الأبجدية-برج الساعة-عجلة فيريس-باتومي ١٣٩
٢٩-تمثال علي ونينو-شاطئ باتومي ١٤٤
٣٠-دولفيناريوم باتومي-منتزه ٢٦ مايو..... ١٤٦
٣١-النافورة الراقصة-شاطئ باتومي ١٤٧
٣٢-شلّال ماخونسيتي..... ١٥١
٣٣-جسر العشّاق-قلعة ناركالا-تبليسي..... ١٥٤
٣٤-المؤلِّف في زيّ المحاربين القدامىٰ-قلعة أنانوري ١٥٧
٣٥- المؤلِّف داخل مقر الشركة السياحية في العاصمة تبليسي . ١٦٣

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

استهلال (١)..... ٧

استهلال (٢)..... ٨

قبل الإقلاع ٩

أرطغرل مرّ من هنا ١٣

مسجد القِبلتيْن!..... ٢٧

شَطّاف الحَمّام..... ٣٩

مَملكة رُوسْتافِيلي..... ٤٩

ضريبة السفَر ٥٨

من النافذة..... ٧١

مدينة المياه الدافئة ٨٧

الرجل الحديدي..... ١٠٥

ثقافة الطعام ١١٧
نظرة الطائر ١٢٩
لؤلؤة البحر الأسود ١٣٩
غرائب وعجائب ١٥١
المَقامة الجورجيّة ١٦٣
الخاتمة ١٧١
بطاقة الكاتب ١٧٤
فهرس الصور ١٧٩
فهرس المحتويات ١٨٣

تمّ بحمد الله